الثائر الأمريكي

مالكوم إكس

(1925 – 1965)

اسم الكتاب : الثائر الأمريكي مالكوم أكس

اسم المؤلف : يوسف ابو الحجاج الأقصري

اسم الناشر : مكتبة زهران - دار الراوي

رقم الايداع : 15483 / 2017

الترقيم الدولي : 978-977-349-092-8

الثائــر الأمريكــي

مالكوم إكس

(1925 - 1965)

(السيرة الذاتية كما رواها)

يوسف أبو الحجاج الأقصري

تقديـم

هذا الكتاب هو سيرة ذاتية لمناضل غير عادي على الإطلاق رجل أمريكي المولد دافع عن حقوق الإنسان بصفة عامة وحقوق السود الذين ينتمي إليهم بصفة خاصة ولد عام 1925 وتوفى عام 1965 قضى في السجن ست سنوات من عام 1946 حتى 1952 انضم لحركة (أمة الإسلام) وأصبح متحدث رسميا لها في في الفترة من (1952 - 1963) وحج وسافر إلى مكة وتم اغتياله في مسرح أو روبن نيويورك في فبراير 1965 . إنها قصة كفاح طويلة تستحق أن نعرفها كما دونها بنفسه مالكوم أكس .

وفي ربوع هذه القصة الإنسانية كما رواها صاحبها تدور سطور هذا الإصدار والله الموفق المستعان

يوسف أبو الحجاج الأقصري

بطاقة تعارف

مالكوم اكس أو مالكوم لتيل أو الحاج مالك شباز كلها أسماء لناشط أمريكي أسود انضم لحركة أمة الإسلام بزعامة (اليجا محمد) وسرعان ما انشق عنها وتفرغ لمناصرة قضايا السود في أمريكا حتي تم اغتياله....

الاسم عند الولادة: مالكوم لتيل

تاريخ الميلاد: 19 مايو 1925 أوماها نبراسكا

الزوجة: بيتي شباز تزوجها عام 1958

الأبناء: عطا الله - قبيله - الياسا - جميلة مليكه - ملاك

سنوات نشاطه: من عام 1953 حتي عام 1964

الوفاة: 21 فبراير 1965 عن عمر 39 عاماً

مكان الوفاة: مدينة نيويورك

سبب الوفاة: إغتياله ضربا بالرصاص

مذكرات مالكوم اكس كما رواها

الفصل الأول

ميلادي وطفولتي

في البداية يحكي مالكوم إكس عن ميلاده وولادته قائلاً:

قالت لي أمي عن أحداث ما قبل مولدى.. إنه ذات ليلة وهي حامل بي، جاءت إلى بيتنا في (أوماها، نبراسكا)، على ظهور الخيل، جماعة الكوكلوكس بقلنسواتها وطوقت البيت وهي تهدده ببنادقها وتأمرها بالخروج. وقالت إنها فتحت الباب ووقفت بحيث يروا بطنها ثم قالت لهم إنها وحدها في البيت مع أطفال صغار وإن أبي قد ذهب إلى (ملووكي) ليلقى وعظه. وقالت إنهم حذروها من مغبة ما ينتظرنا نحن إذا لم نغادر البلدة لأن "البيض الطيبين" قد نفد صبرهم على الفتنة التي يزرعها أبي بترويجه أفكار (ماركوس كارفي) بين زنوج أوماها.

كان أبي، (القس أورلي لبتلي) الذي أنشأ في (هارليم) بنيويورك الجمعية العامة لتحسين ظروف الزنوج، وشرع ينادي في إطارها بصفاء الجنس الأسود وضرورة عودته إلى أرض

أجداده إفريقيا، الأمر الذي تسبب له في متاعب كثيرة.

ودار أعضاء (الكوكلوكس كلان) بالبيت وهم يهددون ويكسرون زجاج النوافذ بأعقاب بنادقهم، ثم لكزوا خيلهم وانطلقوا فغابوا في ظلمة الليل بالسرعة نفسها التي ظهروا بها.

وعندما رجع أبي غضب غضباً شديداً وقرر، كأغلب زنوج هذا الزمان، أن نرحل بمجرد ما تضع أمي حملها الوشيك.

كان أبي رجلاً طويلاً عريضاً، شديد السواد، فقد إحدى عينيه في ظروف لا أعرفها. وكان من بلدة (راينولدس) حيث التحق بالمدرسة الابتدائية وتركها قبل الأوان، وكان مقتنعا، على غرار (كارفي) بأن الحرية والاستقلال والكرامة، مبادئ يستحيل على الزنوج في أمريكا أن يحققوها، وأن عليهم أن يعودوا إلى أفريقيا ويتركوا أمريكا للبيض.

خاطر بحياته واتبع (كارفي) لأنه كان قد رأى البيض يقتلون ثلاثة من إخوانه الستة ويعدمون واحدا من دون محاكمة. ومن غريب المفارقات، أن واحداً فقط من مجموع الإخوة مات على فراش المرض، إذا أن عمي (أوسكار) هو الآخر قتل برصاص بوليس في الشمال، واغتيل أبي على يد البيض.

ولقد كان عندي دائما شعور غريب بأنني أنا أيضاً سأموت مقتولاً فاستعددت لذلك ما وسعني الاستعداد.

كنت سابع أبناء أبي، إذا كان له من امرأة أخرى ولد وبنتان يعيشون في (بوسطن) وهم (أورلي وإبلا وماري) وتزوج أمي في فيلادلفيا حيث ولد أخي الأكبر (ويلفريد) ثم انتقلا إلى (أوماها) حيث وضعتني أمي بعد هيلدا وفيلبرت، وهي لا تتعدى الثامنة والعشرين من عمرها، في مستشفى أوماها في اليوم التاسع عشر من شهر مايو عام 1925. ورحلنا إلى (ملووكي) حيث ولد ريجينالد الذي أصيب في طفولته بمرض في الأمعاء لازمه طوال حياته.

كانت أمي من جزر الهند الغربية، ولذلك لم تكن لها لهجة الزنوج. كانت سمراء ذات شعر سبط بسبب أبيها الأبيض الذي خلف لها العار وخلف لي، دون باقي إخوتي،لوني الفاتح وشعري الأحمر وهما الوصمتان اللتان حسبتهما، لجهلي، ميزة لي. على أنني الآن لا أحمل إلا الحقد لكل قطرة تجري في عروقي من دم ذلك المغتصب الأبيض.

ولم يطل بنا المقام في (ملووكي) إذا ما لبث أبي أن وجد المكان المناسب لزرع أرضه وإنشاء تجارته طبقا لتعاليم (ماركوس كارفي) الداعية إلى الاستقلال عن الرجل الأبيض. وهكذا ذهبنا إلى (لا نسينغ، ميشيغان) حيث اشترى أبي بيتا وبدأ في وعظه للكنائس المعمدانية أيام الأحد ويسرح في

الضواحي بقية أيام الأسبوع ناشرا أفكار (كارفي) وكان قد بدأ يدخر بعض المال لمشروعه التجاري عندما وشى به بعض أنذال الزنوج من فصيلة العم طوم، فشرعت جمعية عنصرية محلية تسمى نفسها اللفيف الأسود وترتدي اللباس الأسود، تهدده وترسل له مَنْ يتحرش به ويشتمه، وتبرر ذلك بتفكيره في إنشاء تجارته وعدم سكناه في الحي الأسود وزرعه للفتنة في صفوف الزنوج الطيبين".

ومرة أخرى كانت أمي حاملاً بأختي الصغرى أيفون التي ما إن ولدت حتى بدأ الكابوس. حدث ذلك في ليلة كالحة من ليالي 1929 مازلت أذكرها. صحوت مفزوعا على صوت طلقات نارية وضجيج لأجد بيتنا يحترق وإخوتي يتدافعون ويختفون. وسقط البيت مباشرة بعدما خرجت أمي وهي تحمل الطفلة فتطاير الشرر وبقينا في العراء في ملابسنا الداخلية والبعض ينظرون إلى أن احترق البيت ولم يبق منه شيء.

وأعطانا بعض الأصدقاء ما نلبسه وآوونا مؤقتا، ثم رحل بنا أبي إلى بيت آخر في مشارف (شرق لا نسينغ) وكان ممنوعا حينذاك على الزنوج منعاً كلياً دخول شرق (لانسينغ) بعد غروب الشمس، أي المكان الذي تقع عليه الآن جامعة ميشيغان الرسمية. لقد حكيت هذا كله لطلاب هذه الجامعة عندما زرتها

في عام 1963 ورأيت أخي روبرت بعد فراق طويل، والذي كان يتابع هناك دراسته العليا في علم النفس. الذي اضطررنا معه إلى الابتعاد عن المدينة.

وأذكر أن العلاقة بين أبي وأمي ساءت في هذه الأثناء وأنه بدأ يضربها. كانت متعلمة وكان شبه أمي فكانت تميل إلى تقويمه بكلامها الناعم الذي كان يغيظه ويفقده السيطرة على نفسه. وكان ذلك شأنه معنا نحن الأطفال فيما عداي، يزجر الصغار ويضرب الكبار بعنف عندما يخلون بقوانينه التي لا تعد ولا تحصى. أما أمي فكانت على العكس لا تتوانى عن تأديبي كلما سنحت لها الفرصة. واعتقد أن أبي كان يفضلني لأنني كنت أميل أخواتي إلى البياض، إذا كانت عقدة البياض مترسخة، لا شعوريا، في أعماق نفسه الزنجية على الرغم من أنه ثائر على البيض. وكان تفضيل الأولاد الأقل سوادا شائعا بين الزنوج، يعود أصلاً إلى أيام العبودية وما كانت تتمتع به السلالة المختلطة من امتيازات.

كان أبي واعظا متجولا، اذكر ذلك جيدا، كما أذكر خطبته التي كان يشير فيها إلى ذلك القطار الأسود الآتي وتصفية الأمور استعدادا للرحيل وهما ولا شك فكرتان تدخلان في نطاق حركة العودة وتتفقان مع "قطار" ماركوس كارفي "الأسود

المتجه إلى أرض الوطن".

وكانت الكنيسة تأخذ بمجامع قلب أخي (فيلبرت) ولا تثير لديَّ سوى الدهشة والحيرة. كنت أنظر إلى أبي وهو يهتز ويصدح وإلى المصلين الذين يفعلون فعله وهم غائبون في ملكوت الصلاة والغناء. وما كنت، حتى وأنا في تلك السن المبكرة لأقتنع بألوهية المسيح أو أنظر بجدية إلى القسيسين، ولا كان بقدرة أحد أن يشدني إلى الدين، حتى تعديت العشرين ودخلت السجن.

كان زنوج (لانسينغ) في حالة مزرية ومازالوا، نوعا ما، ذلك أنني لا أعرف مدينة أمريكية تضم قدر ما تضمه (لانسينغ) مما يدعي بـ (الطبقة الزنجية المتوسطة" أو بعبارة أخرى المستسلمة والضالة واللاهثة وراء الاندماج. لقد كنت في الأيام الأخيرة أكلم زوجين إفريقيين في مبنى الأمم المتحدة، عندما اقترب مني زنجي أمريكي وقال: "ألا تذكرني؟ فشعرت بالحرج لأني حسبت أنه شخص يجب أن أذكره، ثم اكتشفت أنه أحد وصولي(لانسينغ) الذين لم يكونوا ليروا عن مقربة زعيم إفريقي حتى يتملقوه أصبحت معرفة الأفارقة المشهورين عندهم تميزاً طبقياً.

كان الزنجي الناجح في (لانسينغ) هو النادل أو ماسح الأحذية أو بواب المتاجر. وكانت النخبة من نادلى نادي (لانسينغ)

القروي وماسحو الأحذية في مبنى الولاية. وكان أولئك هم الذين كانوا يديرون دور القمار أو يستغلون فقراء الزنوج. ولم يشرع مصنعا (ريو وأولدزموبيل) في تشغيل بعض الزنوج. وكانت الأغلبية العظمى إما تعيش من المساعدة الاجتماعية أو تموت جوعا. وقد جاء اليوم الذي أصبحنا فيه من النوع الثاني مع أننا كنا نزرع أكثر طعامنا في تلك البرية التي كنا نسكن فيها، على عكس زنوج المدينة الذين كنت أراهم في وعوظ أبي يتصايحون طمعا في حياة أفضل في الدار الأخرى بينما البيض يتمتعون بها هناء، في هذه الدار.

كنا نعيش مما يجمعه أبي من المصلين في الكنائس ومما كان يقوم به من أعمال أخرى. وكنت على الرغم من صغر سني، فخورا بنشاطه السياسي الذي كان يجعله مهما في عيني.

ومما يجعلني أعتقد أن أبي كان يفضلني أنه كان يأخذني معه إلى اجتماعات جمعية التقدم الزنجي التي كانت تعقد في البيوت ويحضرها حوالي عشرين شخصا تكتظ بهم غرف الاستقبال ويبدون لي في منتهى الرصانة والذكاء والواقعية حتى يغمرني الشعور أنا أيضا بذلك.

ومما كان يقال في تلك الاجتماعات: "طرد آدم من الجنة فهبط إلى كهوف أوروبا وأن "إفريقيا للأفارقة"، (انهضوا يا

أحباش)، و"ساعة التحرر الإفريقي آتية، وكان أبي يقول إن إفريقيا سيحكمها الأفارقة الذين كان يسميهم"الرجال السود".
وكانت صور (كارفي) الكبيرة، اللامعة، التي يحملها أبي إلى هذه الاجتماعات في ظرف سميك، تنتقل من يد إلى يد وتظهر (كارفي) في استعراض على متن سيارته الجميلة ومن ورائه ما يخيل لك أنه ملايين الزنوج. كان يبدو في هذه الصور ضخماً شديد السواد، يلبس بدلة رسمية رائعة تزينها شرائط مذهبة، وقبعة مثبتة فيها ريشات طويلة. وكان يقال إن له أتباعا في كل أنحاء الدنيا وليس في الولايات المتحدة وحسب. وكان أبي يختم الاجتماع بنشيد يردده معه الجميع، يقول فيه: "إلى الأمام يا أيها الجنس الجبار. بوسعك أن تحقق المعجزات".

والغريب أنني على الرغم من كل ما سمعته في هذه الاجتماعات، لم أكن أتصور إفريقيا إلا أدغالاً، يسكنها أكلة لحوم البشر والقردة والنمر.

وكنا نذهب ليلاً أنا وأبي في سيارته العتيقة إلى هذه الاجتماعات. ومرة واحدة عقد الاجتماع في النهار وكان ذلك في (أووسو) التي يُمنع فيها على الزنوج كما في (لانسينغ) الخروج بعد غروب الشمس، والتي كانت تفخر بانتماء (توماس دوري) إليها وتعرف في أوساط الزنوج بـ "المدينة البيضاء".

والواقع أن حظر الخروج ليلاً على الزنوج كان معمولاً به في العديد من مدن (ميتشجان) والتي لم يكن فيها مع ذلك، إلا عدد قليل منهم، كما هو الشأن بالنسبة (لمايسون) التي كانت فيها أسرة زنجية واحدة هي أسرة (لاينز)، وبها بطل سابق في فرقة المدرسة الثانوية للكرة المستطيلة الأمر الذي جعل بيوت المدينة تفتح له أبوابها ليشتغل فيها.

كانت أمي تعمل من دون توقف. تطبخ وتغسل وتكوي وتنظف وتنهرنا نحن الأطفال الثمانية. وكانت هي وأبي إما في عراك وإما في عداوة. وكان ذلك يرجع في الغالب إلى لحم الخنزير والأرنب الذي كان يحبه بوصفه زنجيا أصيلاً والذي كانت أمي ترفض طبخه لأنه يدخل في زمرة ما نسميه الآن في (هارليم) بالطعام الروحي.

وعن ذكريات طفولته يقول:

قلت سابقاً إن أمي كانت تضربني، والحقيقة أنني لم أكن أسهل عليها ذلك. كانت كلما رفعت يدها رفعت صوتي بالصراخ حتى يظن مَنْ يكون ماراً في الطريق أنها تقتلني، فإذا كان هناك فعلاً مَنْ يمر أحجمت واكتفت بضربات خفيفة. ولقد سألت نفسي عن سبب قسوة أمي عليَّ وتوصلت إلى أن لوني الذي كان ينزلني عند أبي منزلة خاصة هو السبب، ذلك أنها كانت تفضل

عليَّ إخوتي السود ولاسيما (وبلفريد) وتقول لي:

"أخرج إلى الشمس ودعها تمسح عنك هذا الشحوب". كانت قد آلت على نفسها ألا تدعني أصاب بمركب البياض. وأنا الآن على يقين أن ذلك راجع إلى الظروف التي جعلتها هي نفسها تميل إلى البياض.

لقد تعلمت باكراً أن الحق لا يعطي لمَنْ يسكت عنه وأن على المرء أن يحدث بعض الضجيج إن أراد أن يحصل على شيء. كان إخوتي الكبار يسكتون إذا رجعوا من المدرسة وطلبوا من أمي خبزا وزبدة أو أي شيء ولم تعطه لهم، أما أنا فكنت أصرخ وأجعل عاليها سافلها حتى تعطيني ما أريد. وأذكر أنها سألتني ذات يوم لمَّ لا أكون مثل وبلفريد؟ ولكنني قلت في نفسي إن (وبلفريد) لكثرة ما يسكت يموت من الجوع معظم الوقت.

لم يكن لنا حديقة كبيرة وحسب، ولكننا كنا نربي الدجاج أيضاً. كان أبي يشتري كتاكيت تقوم أمي بتربيتها، كنا كلنا نحب الدجاج، ولم يكن لحمه يسبب أية مشاكل بين الوالدين. وأذكر أنني كنت ممتنا لأمي بأنها أعطتني قطعة أرض صغيرة أحببتها واعتنيت بها وزرعتها فاصوليا، بالخصوص، كنت أشعر بالاعتزاز وأنا أراها على مائدتنا. كنت أنتزع النباتات الطفيلية بيدي بمجرد ما تظهر وأفتش وأنا أحبو عن الحشرات فإن

وجدتها قتلتها ودفنتها. وعندما يكون كل شيء جاهزاً ولا يبقى إلا الزرع، كنت استلقي على ظهري في أحواض الأرض الممهدة وأمضي أنظر إلى السحاب المتحرك في السماء الزرقاء وأفكر في أشياء كثيرة.

وعندما بلغت الخامسة من عمري، بدأت أن أذهب إلى المدرسة مع كل من وبلفريد وهيلدا وفيلبرت. كانت مدرسة من الروض أي من رياض الأطفال حتى السنة الثالثة من الثانوي وكانت تبعد عن المدينة بثمانية أميال. ولم نجد صعوبة في الالتحاق بها لأننا كنا الزنوج الوحيدين في المنطقة وكان الشمال يقبل الزنوج إذا كانوا قليلي العدد. ولم يصدر عن الأطفال البيض ما يستحق الذكر اللهم إلا استبدالهم أسماءنا بـ "الزنجي" و "الأسود" حتى حسبنا أنها أسماؤنا الحقيقية، على أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك بسوء نية.

وذات يوم رجعنا من المدرسة فوجئنا أبوينا يتعاركان، كان توترهما قد بلغ أشده بسبب تهديدات اللفيف الأسود. وكان أبي قد جاء بأحد الأرانب التي كنا نربيها لنبيعها للبيض، ولوى عنقه ورمى به مضرجا عند قدمي أمي التي كانت تبكي. بيد واحدة من يديه السوداوين، الضخمتين أجهز على الأرنب. كان من القوة بحيث لم يحتاج لاستعمال السكين. وبدأت أمي تسلخ

الأرنب استعداداً لطبخه بينما خرج أبي غاضباً فصفق الباب واتجه نحو طريق البلدة. عند ذلك تجلت لأمي إحدى رؤاها فهرولت في أثره وهي تحمل في يدها الفوطة التي تلبسها في المطبخ وتصيح: "أورلي!، أورلي"!.

كان قد أصبح في أعلى الطريق فالتفت ولوح ولم يتوقف. فيما بعد، قالت لي أمي أنها رأت موته. كانت ترى الغيب أنا أيضا كذلك. لا أعرف حدثا وقع لي وأخذني على حين غرة إلا حدثا واحداً، عندما اكتشفت، بعد ذلك بسنوات، زيف رجل كنت أحسبه ولياً من أولياء الله الصالحين.

وانتهت أمي من طبخ الأرنب ووضعته في الفرن لئلا يبرد. كانت طيلة بقية النهار حزينة وباكية. ولم يعد أبي في الليل فحضنتنا على غير عادتها وتسرب إلينا من ذلك شعور بالخوف. وأذكر أنني استيقظت على صراخها لأجد الشرطة في غرفة الجلوس تحاول تهدئتها، وأجدها وهي ترتدي ثيابها على عجل وتذهب معهم.

أخذت الشرطة أمي إلى المستشفى وطلبت منها التعرف إلى جثة أبي ولكنها أجفلت وأبت أن تنظر إليها، وخيرا ما فعلت. ذلك أن رأس أبي كان مهشما بينما كان زنوج لانسينغ يتهامسون بذلك وبأن قاتلي أبي الأسود هو أبيض بالطبع، والذي قتله

وضربه ثم وضعه في طريق حافلة دهمته، وأنه لم يسلم الروح إلا بعد ساعتين ونصف الساعة.

كان زنوج الأمس ولاسيما زنوج جورجيا أقوى منهم اليوم، ولم يكن أمامهم إلا مصارعة الموت، وسمعنا نحن الأطفال خبر موت أبينا في الصباح كنت في السادسة من عمري ورأيت بيتنا يختنق بالزوار واللغط والنحيب وأمُي تصاب بالصرع، والنسوة يحطن بفراشها ويضعن على مناخيرها أملاح، ومر أثناء تشييع الجنازة.

والغريب أن كل ما علق بذهني من الجنازة أنها تمت في محل حانوتي وليس في الكنيسة. أدهشني أن أبي، رجل الدين الذي كان يشرف في الكنائس على الجنائز تجري مراسيم جنازته في محل حانوتي

وأذكر أن ذبابة كبيرة سوداء حطت على وجه أبي وأن بلفريد قفز من مكانه ليطردها ثم عاد وهو يلتمس طريقه ودموعه تنهمر على خديه. وعندما اقترينا من التابوت بدا لي وجه أبي القوى وكأنهم قد نثروا عليه الطحين وتمنيت لو أنهم لم ينثرو عليه كل ذلك القدر.

وظل بيتنا لأكثر من أسبوع لا يفرغ من الزوار. جاء آل لاينز من مايسون الواقعة على بعد أثنى عشر ميلاً وآل وولكر

وماك غاير وراندولف وتورنر وجاء آخرون ممن كنت أراهم في اجتماعات أبي من لانسينغ ومدن أخرى.

وتعودنا نحن الأطفال على الحدث بسرعة بعكس أمنا إذا كنا غير قادرين على رؤية ما ينتظرنا من أهوال. وما إن فترت حركة المعزين حتى بدأت أمي تتردد على شركتي التأمين اللتين كان أبي يفتخر بانتمائه إليهما ويقول: "إن على المرء أن يؤمن أولاده من مداهمة الموت لا قدر الله.

ودفع لنا المكتب الأصغر بسهولة مبلغ خمسمائة دولار، وبدأت تتردد على المكتب الثاني وتعود حانقة حيث ماطل أول الأمر ثم امتنع عن الدفع نهائياً زاعماً أن أبي انتحر. ومرة أخرى بدأ بيتنا يمتلئ بالزوار الذين كانوا يقولون مستنكرين: "يا لهؤلاء البيض! كأن الرجل كان بإمكانه أن يهشم رأسه ثم يذهب إلى السكة ويتمدد فيها لتدهمه الحافلة!"

وهكذا أصبحنا ثمانية أطفال وأرملة في الرابعة والثلاثين من عمرها، من دون سند، ولكننا واصلنا الحياة بحكم العادة حتى نفد مبلغ مكتب التأمين الأول، فترك ويلفريد المدرسة وبدأ يعمل أي عمل. كان أكبر من سنه، فرأي ما لم يكن بإمكاننا أن نراه. وكان يعود في المساء خائر القوى فيعطي أمي كل ما كسبه ذلك اليوم. وكانت هيلدا هي الأخرى تساعد أمي

في العناية بالأطفال الصغار، أما أنا وفيلبرت فلم نكن نساعد بشيء وإنما كنا نتعارك كل الوقت ونتعاون على معركة أولاد البيض خارج البيت لأسباب عنصرية.

كنت قد أخذت ريجينالد تحت جناحي بعدما كان قد خرج من طور الطفولة وأصبحت على ما يبدو أنظر إليه نظرة الأخ الأكبر لأخيه الأصغر. وبدأت أمي تشتري بالقرض كل ما تحتاجه، والقرض، كما كان يقول أبي هو "الخطوة الأولى نحو الذل والعودة إلى العبودية. ثم بدأت تعمل في بيوت الناس أو تخيط للبيض. وسهل عليها ذلك أن سوادها لم يكن باديا، إذ لم يكن كل البيض يقبلون تشغيل السود فكانت تبقى في بيت من البيوت حتى يكتشف أمرها وتطرد فتعود وهي تحاول إخفاء دموعها عنا. لا أذكر من منا ذهب إليها في عملها ذات مرة لسبب طارئ، ففضحت وطردت ورجعت تبكي ولا تحاول إخفاء دموعها.

وبدأنا نعود من المدرسة فنجد موظفي المساعدة الاجتماعية يطرحون على أمنا آلاف الأسئلة. وكنت أشعر من تصرفاتهم معها ومن نظرتهم إليها وإلينا وإلى البيت أنهم لا ينظرون إلينا نظرتهم إلى بشر. وبدأت أمي تتواصل بحاجتين، واحدة من العوز وواحدة من الترمل، ولكن ما لبثت إحداهما أن توقفت

وبقت الأخرى لا تكفي لتسديد قروض البقالة.

وبدأت أحوالنا تتردى بسرعة، ماديا ومعنويا. كانت أمي امرأة مكابرة، فحطمها أن تعيش على الصدقة وانتقلت مشاعرها إلينا بالعدوى. بعد ذلك فاض صبرها وأصبحت تنفجر في البقال بحدة وتتهمه بتضخيم الفاتورة وتفعل الشيء نفسه مع موظفي المساعدة الاجتماعية وتقول لهم بصراحة إنها راشدة وقادرة على تربية أولادها، وإنه لا داعي لأن يحشروا أنفسهم في حياتنا بهذا الشكل. كانوا يتصرفون كما لو كانوا يملكوننا، ولم يكن هناك من سبيل لمنعهم وقد اكتسبوا هذا الحق من الحوالة الشهرية.

وعندما بدأوا يختلون بنا في المدخل أو في أي مكان ويسألوننا بعض الأسئلة أو يحرضوننا على أمنا وعلى بعضنا البعض، كنا نفهم أن تثور أمنا، ولكننا لم نفهم بالمرة لماذا كانت تتضايق مما تقدمه لنا الولاية من صناديق اللحم وأكياس البطاطس، والفواكه وكل أنواع المعلبات. لم نفهم أنها كانت تحاول محاولة يائسة أن تحافظ على كرامتها وكرامتنا والتي كانت كل ما تبقى لنا.

وفي سنة 1934 بدأنا نعرف معنى الفقر الحقيقي. كانت أسوأ سنوات الأزمة الاقتصادية، فعم العوز كل من كنا نعرفهم، ولكنهم كانوا مع ذلك يحملون إلينا بعض الطعام الذي كانت أمي

تقبله مع أنه صدقة خاصة، وأن عملها وعمل وبلفريد لا يكونان كافيين. وكانت مخبزة بلاسنيغ تبيع بخمسة وعشرين سنتا الكيس الكبير من الخبز والحلوى القديمين، فكان اثنان منا يذهبان لشرائه ويعودان به على الأقدام مسافة ميلين إلى بيتنا الواقع خارج المدينة. وكانت أمي تتفنن في صنع أعداد من الطبخات منه: شيئاً يشبه الخبز الفرنسي مقلياً بالبيض (إذا كان هناك بيض)، حلوى الخبز بالزبيب أحيانا اللحم المفري بالخبز إذا حدثت وعثرنا على اللحم، مع أنه كان يصل إلى المائدة خبزاً أكثر منه لحماً. أما الحلوى فقد كنا نلتقمها من الكيس مباشرة.

وعندما كنا لا نجد الخمسة وعشرين سنتا كنا نجوع حتى نشعر بالدوار. حينذاك كانت أمي تطبخ لنا قدراً من الهندباء الفجة فنأكله. وأذكر أن واحداً من ذوي العقول الصغيرة اكتشف ذلك وأذاعه وأن الأطفال بدأوا يستهزئون منا ويقولون إنا نأكل "الحشيش المقلي". كنا، عندما يحالفنا الحظ نأكل عصيدة القمح والذرة ثلاث مرات في اليوم أو العصيدة في الصباح وخبز الذرة في المساء.

وكبرنا أنا وفيلبرت على العراك فبدأنا نأخذ بندقية أبي ونأخذ ريجينالد الصغير معنا أحيانا ونذهب لقنص الأرانب التي كنا نبيعها لأشخاص في أسفل الطريق وفي أعلاه. وأنا

الآن على يقين أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك لمساعدتنا لأنهم كانوا كباقي خلق الله يقتصون أرانبهم بأنفسهم.

كنا ننصب الكمين لفأر المسك في نهر صغير يقع خلف بيتنا، ونكمن للضفادع حتى تخرج فنضربها برماح صغيرة ونبيع سيقانها بخمسة وعشرين سنتا للبيض الذين يأكلون كل شيء على ما يبدو. ثم بلغ بنا الفقر حدا فقدنا معه كل شعور بالكرامة، فبدأنا نذهب إلى المخزن الذي يوزع فيه الطعام على الفقراء، وبدأت الأصابع تشير إلينا وأسماؤنا ينادي عليها بصوت عال كلما جاء ذكر المعوزين في المدرسة. ولم يكن هناك من طعام في بيتنا إلا وعليه دمغة "ليس للبيع" التي توضع على الطعام الخيري لمنع المستفيدين منه من بيعه. ومن غريب الصدف أننا كنا نحسبها إحدى الماركات التجارية.

يواصل مالكوم اكس حديثه قائلاً:

وبدأت أخرج من المدرسة وأصعد إلى لانسينغ بدلاً من الذهاب إلى البيت، ثم أقصد محلات البقالة وأتوقف عند التفاح وبقية الفواكه المعروضة في الخارج متحينا الفرصة لأسرق. كما أنني بدأت أزور بعض البيوت التي نعرف أصحابها وقت العشاء كنت أعرف أنهم يعرفون القصد من زيارتي وأقبل دعوتهم وأكل حتى اكتفي. وكنت أذهب بصفة خاصة إلى بيت

آل كوهانا، وأصحابه كانا عجوزان من أطيب خلق الله، يعيش معهما ولد من عائلتهما إسمه "بيغ بوي" وعجوز اسمها مسز أدكوك كانت هي الأخرى تكثر من التردد على الكنيسة وفعل الخير، وقد قالت لي قولا ما زالت أذكره، قالت: "يعجبني فيك يا ملكوم عدم الرياء. أنت لا تصلح لشيء ولكنك لا تحاول أن تخفي ذلك".

ومع التسكع والتطفل والسرقة تردت أخلاقي وأصبحت قليل الصبر وعدوانياً كنت قد كبرت وبدأت أشعر أن معاملة البيض لي مطبوعة بما يعرفونه عن ظروف موت أبي. كان الأطفال في المدرسة ينطقون بما يسمعونه من آبائهم ويقولون سراً وعلانية إن أبي قتله (اللفيف الأسود أو الكلان) وإن شركة التأمين هضمت حقنا.

ثم بدأت أُمسك وأنا أسرق، وبدأ موظفو المساعدة الاجتماعية يركزون عليّ كلما جاؤوا إلى البيت ويتكلمون على اعتقالي الأمر الذي أثار غضب أمي من جديد. وقد كانت تضربني كلما سرقت ولا تعبأ بصراخي. وأنا معتز بكوني لم أرفع يدي عليها أبداً.

كنا نحن الأولاد نتسلل في ليالي الصيف إلى المزارع لسرقة البطيخ الأحمر وهي عادة يعمل بها البيض ويلقبونهم من بين ما

يلقبونهم به بـ "لصوص البطيخ الأحمر" ويقولون عندما يسرقه أولادهم يقولون إنهم يفعلون ذلك بتأثير من أولاد الزنوج. وهكذا البيض دائما إما أن يتستروا على عيوبهم وإما أن يتملصوا منها ويلحقوا مسؤوليتها بالزنوج.

وبدأت أقوم بأعمال متنوعة، كقطف توت الأرض وحصلت في آخر أول يوم على دولار كامل. كنت أتضور جوعاً فأخذت الدولار وتوجهت نحو المدينة لا ألوي على شيء عندما طلع على ذلك النحس المدعو رتشارد دكسون وهو ولد أبيض أكبر مني، وسألني إن كنت أريد أن ألعب لعبة "وجه أو ظهر" (لعبه قمار) وصرف له الدور وبدأنا نلعب، وما إن مضت نصف ساعة حتى كانت النقود في جيبه، وبدلاً من أن أذهب إلى المدينة واشتري ما أكله، ذهبت إلى البيت. ثم اكتشفت أنه غش في اللعب عندما عرفت أن هناك طريقة تمسك بها قطعة النقود لجعلها تنزل على الوجه المراد. وكان ذلك أول درس لي في القمار، تعلمت منه أن أشك فيمن يربحون باستمرار، كما هو شأن الرجل الأبيض في أمريكا، رابح دائما لأنه يمسك الأوراق في يده ويوزع علينا من القاع.

وبدأت أمي تقرأ كتيبات ومطبوعات يأتيها بها أعضاء فرقة دينية سكنوا أسفل الطريق كانوا يؤمنون بقرب قيام الساعة

ويحرمون من الطعام ما حرمه موسى كما كان وبلفريد الذي رجع إلى المدرسة بعدما بدأنا نحصل على الطعام الخيري أيضاً ولا يُرى إلا وفي يده كتاب. ولعل أمي انجذبت إلى أعضاء هذه الفرقة لكثرة ما كانت تحرمه من لحوم، مثل لحم الخنزير والأرنب وما لا يأكل الحشيش وما ليست له حوافر مشقوقة. وكانوا يعقدون اجتماعات تأخذنا أمي إليها، يقدمون فيها أنواع الطعام ويحضرها عدد قليل من الزنوج الذين يأتون من المدن المجاورة، كانوا أطيب بيض رأتهم عيني، ولكننا لاحظنا أنهم لا يشبهوننا، وناقشنا ذلك في البيت.

كان موظفو الولاية ما يزالون رغم معارضة أمي، يمارسون حقهم في دخول بيتنا وزرع الشقاق بيننا أو أليس غريباً أن أكون مختلفاً عن إخوتي؟ ثم قرروا أن نوضع في بيوت المحسنين بحجة انحرافي الذي يدل على إهمال أمي.

نعم كنت أكثر إخوتي شغباً وعراكاً مع (وبلفريد)، ولكن لم يكن من بينهم مَنْ لم يمارس الشغب في وقت من الأوقات، ويساهم من حيث لا يدري في الدفع بأمنا إلى الحد الذي أصبح موظفو الولايات يصفونها فيه بالجنون. لا أذكر متى أصبحت التهمة رسمية، لكنني أذكر أنهما قالوا عنها "مجنونة" لأول مرة عندما أعطاها مزارع زنجي يسكن أسفل الطريق لحم

خنزير ورفضته، ولعله كان خنزيرا كاملاً ولعلهما كانا اثنين بالمرة. "من يرفض النعمة؟ "المجنونة" رفضتها". ولم يبالوا حيث قالت لهم إنها لا تأكل الخنزير لأسباب دينية. الأنذال! قالوا لنا: "أمكم مجنونة، ترفض الطعام"، وكان ذلك بداية نهاية أسرتنا التي كانت تعيش مأساة تحملت أنا جزءا من المسؤولية فيها. كان بالإمكان أن تقاوم، ألا نفترق، فلقد كنت أحب أمي رغم شغبي ورغم ما سببته لها من مشاكل، وأبلغتنا الولاية بقرار انتقالي إلى بيت كوهان.

في هذه الأثناء كان رجل أعزب من لانسينغ لا داعي لذكر اسمه قد بدأ يزورنا لا أعرف كيف تعرفت إليه أمي ولا ماذا كانت وظيفته، وإن لم يكن لزنوج لانسينغ ما يمكن أن يسعى إلى وظيفة. كان لشدة سواده وضخامته يشبه أبي، ولعل أمي وجدت فيه الملاذ والعون علينا وعلى موظفي الولاية. وعرفنا القصد من زيارته وتقبلناه بشيء من السخرية، إذا كنا نقول فيما بيننا إن أمنا تتزين وتبدو منشرحة لمجيئه. وكانت لا تزال في السادسة والثلاثين من عمرها وعلى شيء من جمال. وبعد حوالي السنة انقطعت زيارات الرجل فجأة وبدأت أسمع ما يقوله الناس في ذلك، إنه أدرك فداحة غلطته وأن عددنا أخافه فنجا بنفسه قبل فوات الأوان، وما زلت إلى اليوم أدرك أثر ذلك على أمي.

وأجهزت الصدمة على أمي فبدأت تكلم نفسها وتعيش في عالم آخر، وسهل ذلك على الولاية الشروع في ترتيب انتقالي إلى بيت كوهانا، فبدأ موظفوها يزينون لي العيش هنا ويرددون عليَّ ما قاله الزوجان وبيغ بوي ومسز أدكوك من أنهم يحبونني. أنا أيضاً كنت أحبهم ولكنني لم أكن أرغب في فراق وبلفريد، أخي الأكبر الذي كان مثلي الأعلى، وهيلدا التي كانت بمثابة أمي الثانية، وفيلبرت الذي كنت أشعر رغم عراكي معه أنه أخي، وريجينالد، ريجينالد بالخصوص، الضعيف بسبب مرضه والذي كان يعتمد عليَّ، والصغار إيفون وويسلي وروبيرت.

ومع مغالاة أمي في كلامها مع نفسها، بدأت هيلدا تطبخ وتحاول مع بلفريد العناية بنا، والحمل كان ثقيلاً فعمنا الإهمال وبدأت سفينتنا تغرق. لذلك تنفست الصعداء عندما جاء رجل ليأخذني إلى بيت كوهانا. وأذكر أن أمي قالت له وهو يذهب بي: "قل لهم ألا يعطوه لحم الخنزير".

أصبحت حياتي في بيت كوهانا أفضل بكثير. قاسمت بيغ بوي غرفته، ولكنني ظللت أفتقد أخوتي. وكان الزوجان متدينين جداً. فكانا يصاحبانني معهما إلى كنيسة من نوع جديد يفوق الانفعال فيها ما كنت أراه في الكنائس المعمدانية. كانت تهتز بالغناء والبكاء والنواح وقرع الطبول في جو رهيب شعر فيه

بحضور الأرواح والأشباح. كما أنني كنت أذهب معهم لصيد السمك أيام السمك إلا أن فكرة الجلوس والانتظار لم ترق لي. كنت أقول لنفسي لابد أن تكون هنا طريقة لصيد السمك ولكنني لم أعرف ما هي.

وكان السيد جوهانا يخرج لقنص الأرنب مع جماعة من العجائز ويأخذني معه أنا وبيغ بوي ، وكانوا يعرفون أن الأرنب عندما يهاجمه الكلب يدور في مكانه فكانوا يركزون على نقطة الانطلاق، حتى إذا عاد إليها ضربوه بالرصاص وكانت معي بندقية أبي. قلت في نفسي إنني لو اعترضت سبيل الأرنب لأصيده قبل أن يصل إليهم. ونجحت خطتي وبدأت أصيب ثلاثة أو أربعة أرانب قبل أن يصيبوا هم واحداً. كنت في الثانية عشرة من عمري، وكان كل ما في الأمر أنني أخذت خطتهم وطورتها. والغريب أن أحداً منهم لم يفطن إلى ذلك، وإنما حسبوا أنني صائد ماهر وجعلوا يركزون على تحسين رمايتهم. وتعلمت من ذلك أنه إذا كان هناك مَنْ يقوم بعمل يشبه عملك ويتفوق عليك فهو لا محالة يفعل شيئاً لا تفعله.

كنت أتردد كثيراً على بيتنا مع بيغ بوي أحياناً أو أحد الزوجين، وإن ذلك يخفف على مشقة الزيارة إذ كانت أحوال أمي تزداد سوءاً الأمر الذي جعل الولاية تشرع في الاستعداد

لأخذ بقية أخوتي وتبعث لي بمن يطرح عليَّ العديد من الأسئلة ثم وضعت أمي بقرار قضائي في مستشفى كلامازو للأمراض العقلية، الواقع على بعد ما يزيد على سبعين ميلاً، فأصبحنا أطفال الدولة، ووكل علينا قاضي يدعى ماك كليلان. وبذلك أصبح رجل أبيض يتصرف. بمقتضى القانون، في أولاد رجل أسود في شكل جديد من أشكال الرق مهما تكن سلامة النوايا.

وقضت أمي في ذلك المستشفى ستة وعشرون عام ولم تتركه إلا في 1963عندما أخذها فيلبرت وزوجته لتعيش معهما. كنت وأنا في ميشيغن أزورها وأتألم دون أن يكون بيدي ما أفعله، فلو أن ما بها كان مرضا عضويا لعرفناه ووجدنا له دواء. ثم أصبحت لا أتحمل هذه الزيارات فأوقفتها في عام 1952. كنت في السابعة والعشرين من عمري، وكان فيلبرت قد قال لي إنها تعرفت إليه فذهبت لزيارتها مستبشراً ولكنها لم تعرفني. حدقت في ولم تعرفني وقلت لها: "أمي هل تعرفين في أي يوم من أيام الأسبوع نحن؟" فقالت: "لقد رحلوا ولم يبق منهم أحد". وغمرني شعور مدمر فمضيت أنظر إليها وأدرك تمام عجزي. المرأة التي حملتني في بطنها وأرضعتني وربتني وضربتني وأحبتني، لا تعرفني.

وعندما انتقلت أمي إلى المستشفى في 1937 وزعت

الولاية إخوتي على البيوت، وذهب فيلبرت إلى بيت عجوز تسمى مسز هاكيت، وريجينالد وويسلي إلي بيت مسز وليامز التي كانت صديقة أمي، وإيفون وروبيرت إلى بيت ماك غاير الذي يرجع أصله إلى جزر الهند الغربية وظل كل من وبلفريد وهيلدا في البيت. وأصبحنا نلتقي في المدرسة وخارجها وظلت علاقتنا قوية.. وهكذا كانت طفولتي.

يقول مالكوم أكس عن تعلقه بالملاكمة والملاكمين:

في 27 يونيو 1937 أحرز الملاكم الأسود جو لويس لقب بطل العلم في الوزن الثقيل فاحتفل زنوج أميركا بالحدث عن بكرة أبيهم، وأصبح كل طفل زنجي، يتطلع إلى اليوم الذي يصبح فيه بطلاً في الملاكمة. وكان أخي فيلبرت ملاكماً ناجحا في المدرسة وكنت أنا، نظراً لطول قامتي ونحافتي ألعب كرة السلة لعباً لا بأس به وقد كانت الرياضة والغناء إلى حد ما ، هما المجالان المفتوحان أمام الزنوج.

وفي ذلك العام نظمت مباريات في الملاكمة بلانسينغ شارك فيها أخي فيلبرت، وكنت أذهب لمشاهدته وهو يتمرن وأسمع ثناء الناس عليه وأتأثر، ولكنني بدأت أخشى أن يحول تطلع ريجينالد الصغير إليه. وتوهمت أنني أملك مواهبه قصدت مقر اللجنة المنظمة وزعمت أنني في السادسة عشرة من عمري

ووضعوني في ترتيب الوزن الخفيف مع ولد أبيض مبتدئ مثلي يدعى بيل بترسون لن أنساه ما حييت.

وجاء إخوتي وأخواتي وكل مَنْ أعرفهم في لانسينغ لمشاهدة المباراة ودخلت الحلبة وقدمونا للجمهور ثم دمغنا الحكم وقرأ عليه زبوره: النزاهة والاستقامة و ... الخ. ثم رجعنا إلى زوايانا ودق الجرس فتقدمنا. كنت خائفا وإن بيل أيضاً كان خائفاً كما اعترف لي فيما بعد. خاف مني إلى درجة أنه أوقعني خمسين مرة وقضى على سمعتي بين الزنوج، حتى لم أعد أجرؤ على الخروج في لانسينغ ولاسيما في ذلك الوقت لأني أسود لا يرفع رأسه وقد جلده رجل أبيض لاسيما وقد كانت الحلبة المكان الوحيد الذي يستطيع هو فيه أن يجلد الرجل الأبيض دون أن يقطع رأسه.

ولم يكن بإمكاني أن أبقى مختفياً إلى الأبد، فخرجت وتعرضت لا أنات الزنوج القاسية، ولكنها لم تؤثر في قدر ما أثر في تحاشي أخي الصغير النظر إليّ فقررت أن أفعل شيئاً. رجعت إلى الملعب وأهلكت نفسي في التمرين. لكمت الأكياس وقفزت بالجبال وتنفست بعمق ثم طلبت أن أنازل بيل بترسون مرة أخرى، وجرت المباراة في بلدته ولحسن الحظ هذه المرة، فلم يحضرها أحد ممن أعرفهم. ودخلنا الحلبة ودق الجرس

فرأيت قبضة يد ورأيت السقف يهوي وسمعت الحكم يقول: "عشرة" فوق رأسي وانتهت المباراة، لقد سمعت العد من أوله، إن أردتم الحقيقة، ولكنني لم أجرؤ على النهوض. كان بيل ذاك بداية الحلبة في حياتي ونهايتها. ولقد فكرت في ذلك بعدما أسلمت ووجدت أن الله سبحانه وتعالى كان قد اختار لي طريقاً آخر غير الملاكمة.

في ذلك العام عن لي ذات يوم أن أتحدى الأستاذ فدخلت الصف بالقبعة وأمرني أن ألف الصف بها حتى يسمح لي بالتوقف، ثم أضاف: "وبذلك سيراك الجميع، في حين سيتعلم من جاؤوا من أجل التعلم". وقام إلى السبورة ليكتب عليها وأنا ما أزال أدور، فأخذت من الجدار وأنا أمر خلف مقعده مسماراً من ذلك النوع الذي يضغط بالإبهام ووضعته على مقعده بحيث أصبح رأسه الحاد إلى أعلى، وواصلت طوافي وكأن شيئاً لم يكن. وجلس على المقعد فقفز وصرخ وفتحت أنا الباب وهربت وكانت النتيجة أنني فصلت من المدرسة بسبب سوء السلوك.

كنت أحسب أن الفصل يقتصر على البقاء في بيت كوهانا والتجول في البلدة والحصول على مصروف الجيب عن طريق القيام ببعض الأعمال، ولكن موظفاً لم يبق لي أن رأيته جاء من مقر الولاية لدهشتي وأخذني إلى المحكمة حيث أُبلغت بقرار

التحاقي بسجن الأحداث الواقع على بعد اثني عشر ميلاً، وهو حسب ما قيل لي مكان يذهب إليه الأطفال "السيئون" قبل المدرسة الإصلاحية.

ورجعنا إلى البيت أنا والموظف، وجمعت ملابسي القليلة في صندوق من ورق وذهبت معه في سيارته في رباطة جأش، والزوجان ومسز أدكوك وبيغ بوي بيكون.

كان اسمه ماينارد آلن وكان أطيب موظف رأيته في حياتي. طيب خاطرهم وقال لي ونحن في الطريق: إن درجاتي تدل على أن بإمكاني أن أكون ناجحاً إن أنا حسنت سلوكي وأن السجن التربوي ليس له أي معنى سلبي، وشرح لي كلمة "إصلاح" فقال أنها تعني التغيير إلى الأفضل، وقال إن هذا المكان يساعد أمثالي من الأطفال على إدراك أخطائهم وبدء صفحة جديدة، وبشرني بطيبوبة مديرة السجن مسز سويرلنغ وزوجها.

كانت مسز سويرلينغ سمينة وقوية ومنشرحة وكان زوجها نحيفاً، أسود الشعر والشارب، كان أحمر الوجع، وديعاً ومهذباً حتى معي. وكانا كما قال الموظف طيبين بالفعل. وأخذتني مسز سويرلينغ إلى غرفتي، الغرفة الخاصة بي. ثم اكتشفت بدهشة أنه مسموح لي بالأكل معهما. وكانت أيضاً المرة الأولى التي أكل فيها مع البيض أو على الأقل الكبار منهم منذ

اجتماعات الجماعة الدينية التي تكلمت عليها. ولم تكن تلك خطوة خاصة بي، إذا كانت مسز سويرلينغ وزوجها يجلسان إلى رأس مائدة طويلة تضم كل ذوي الجنح البسيطة ممن فروا من بيوتهم أو أشياء من هذا القبيل. أما الأطفال الخطرون فكانت تقفل عليهم الغرف.

وكانت هناك طباخة بيضاء تدعي لوسيل لاثروب (عجباً كيف تحضرني كل هذه الأسماء وقد مضى عليها عشرون عاماً) عاملتني هي الأخرى معاملة حسنة وكان لها زوج اسمه دوان يعمل في جهة ما ولا يأتي إلا في نهاية الأسبوع.

ومرة أخرى لاحظت أن للبيض رائحة مختلفة وأنهم لا يستعملون التوابل في أكلهم مثلنا. وبدأت أكنس وأمسح البلاط والغبار في بيت سويرلينغ كما كنت أفعل مع بيغ بوي. وكان قد أحباني من أول وهلة وبدلا اسمي بـ "طالع السعد" إلا أنهما كانا مثل لوسيل يخوضان في كل شيء وأنا حاضر أسمع وأرى، وكأنني غير موجود أو كأنني لا أفهم أو كأني طائر كناري، بل إنهما كان يتكلمان علي أيضاً وعلى الزنوج".

وأذكر أن مستر سويرلينغ على الرغم من طيبوبته رجع من لانسينغ ذات يوم فقال لزوجته وأنا أسمع: "لا أفهم كيف يشعر هؤلاء الزنوج بتلك السعادة وهم في ذلك الفقر المدقع". وتكلم

على السيارات الجديدة المركونة أمام الخرائب، فقالت "إنها طبيعة زنجية" وبقى قولها هذا عائقاً بذهني.

كان يزورهما عدداً من البيض ولاسيما السياسيون والقاضي الذي وكل علينا، فكانوا يخوضون في أحاديث من هذا النوع. وكان القاضي يسأل عليَّ وكانوا يحضرونني إليه فيتطلع في ويهز رأسه وكأنني مُهر فريد أو سلوقي من سلالة أصيلة، فأدرك أنهم كلموه على حُسن سلوكي وإخلاصي في العمل.

إن ما أريد قوله هنا إنه لم يكن ليخطر لهم على بال بأنني إنسان له شرور وتفكير وإدراك، وهي الصفات التي كانوا سيعترفون بها تلقائياً لأي طفل أبيض في مثل ظروفي. وهكذا البيض على مر التاريخ، قد تكون معهم، ولكننا لا ولن نصبح منهم.

قد يفتحون الباب في الظاهر ولكنه يظل في الواقع مغلقاً بإحكام. لقد كان وجودي في ذلك البيت وعدمه سيان. هذه هي حقيقة التنازل الأبيض وحقيقة ما يدعي بـ "التحريريين" و"البيض الطيبين" التي أحاول أن أوضحها لأنصار الاندماج من الزنوج. إن حُسن المعاملة لا يعني لي شيئاً ما دام الرجل الأبيض لن ينظر إليَّ أبداً كما ينظر إلى نفسه. قد يشاركني الحلو ولكنه لن يشاركني المر، وعندما تتوغل في أعماق نفسه تجد أنه ما زال مقتنعاً بأنه أفضل مني.

لم أكن بالطبع أدرك هذا بوضوح حينذاك. كنت أقوم

بأعمالي اليومية وكانوا يسمحون لي بالذهاب إلى لانسينغ وقضاء اليوم أو الليلة فيها. لم أكن كبيراً ولكنني كنت طويلاً فلم يحاسبني أحد على تأخري في الحي الزنجي. ولقد بقيت أنمو حتى أصبحت أطول من ويلفريد وفيلبرت اللذين كانا قد بدءا يتعرفان إلى البنات في حفلات المدرسة ويقدمانهن لي.

أما أنا فلم تكن تعجبني من أعجبها والعكس، زيادة على أنني لم أكن أحسن الرقص أو أملك من النقود ما أود إنفاقه على البنات، ولذلك كنت أقضي ليالي السبت بكل بلادة متسكعاً بين البارات والمطاعم الزنجية، حيث صناديق الموسيقى تصدح بـ "توكسيدو جانكشن" و"فلات فوت فلودجي" لإرسكين هاوكينز وسليم أند سلام وما إلى ذلك من أغاني ذلك الزمان.

وكانت تقام حفلات راقصة كبرى تحييها فرق تأتي من نيويورك وتحضرها لانسينغ برمتها، وقد تعرفت خلال هذه الحفلات إلى لاكي توسون وميلت جاكسن اللذين توطدت علاقتي بها فيما بعد في هارليم

وجاء موعد التحاقي بالمدرسة الإصلاحية ولم أترك فعرفت أن ذلك من تدبير مسز سويرلينغ حيث كنت أول من سمع له بالتردد إليها، وهو ما يزال نزيلاً على سجن الأحداث، ولكن في تلك المدرسة لم يكن من الزنوج إلا بعض أبناء لاينز الذي يتمتع بسمعة

طيبة، وقد كنت أسمع أمي تقول عن السيدة لاينز إنها واحدة من زنوج مثيغان الأربعة الذين يعود أصلهم إلى جزر الهند الغربية.

كانوا في المدرسة يسمونني "الزنجي" بمن فيهم التلاميذ والأساتذة، أيضاً من غير قصد، مع أن بعضهم كان أطيب من تلاميذ لانسينغ، ومع أنني كنت أتمتع بشعبة كبيرة بينهم لأني زنجي الصف الوحيد من جهة، ولأنني بتوصية من امرأة لها قدر كبير في البلدة من جهة أخرى. وهكذا كانت تنهال عليَّ الطلبات للمشاركة في الأنشطة الثقافية والرياضية فكنت أقبلها إرضاء للجميع.

ولم تمض أيام حتى لاحظت مسز سويرلينغ حاجتي إلى النقود، وجدت لي عملاً بأحد المطاعم حيث بدأت أغسل الصحون بعد دوام المدرسة. ورغم زيادة الأجرة سعدت بالعمل لأن ابن صاحبه المطعم الذي كان يسكن فوق المطعم كان صديقي، ولأنها المرة الأولى التي أكسب فيها ما لا يذكر. ووفرت ثم اشتريت بدلة خضراء وحذاء وطعاما لتلاميذ صفي الذين كانوا قد فعلوا معي ذلك من قبل.

كنت أحب التاريخ واللغة الإنجليزية. وأذكر أن أستاذ اللغة الإنجليزية المستر ستراوسكي كان لا ينفك يقدم لنا النصائح عن كيفية النجاح في الحياة، وأن أستاذ التاريخ المستر وليامز كان يضايقني بنكته عن "الزنوج". وأذكر أنني اتخذت منه موقفاً منذ

أول أسبوع. كنت قد دخلت الصف متأخراً فأخذ يغني للتلاميذ على سبيل النكتة "هناك أسفل الوادي"، في حقول القطن يقول بعضهم يوجد (الزنجي). نكتة! وبقدر ما أحببت التاريخ كرهت أستاذه منذ ذلك اليوم. ثم وصلنا إلى حصة عن الزنوج وكانت فقرة واحدة لا غير مر الأستاذ عليها مرور الكرام ثم ختم بتعليق وهو يقهقه، مفاده أن للزنوج أقداماً ضخمة بحيث أنهم يتركون فجوات في الأرض إذا مشوا عليها. وكنت للأسف أكره الرياضيات، وقد تساءلت فيما بعد عن سبب ذلك، ووجدت أن الرياضيات تغلق باب المناقشة. الغلط فيها غلط وانتهت.

كنت عضوا في فرقى كرة السلة التي كانت تشارك في مباريات تجري بالمدن القريبة مثل (هوبيل وشارلوت) وكان الجمهور ينهال عليَّ كلما دخلت، الملعب بنداءات: يا "زنجي"!، يا "سارق البطيخ الأحمر"!، وما كان ذلك يضايق الفرقة أو المدرب أو يضايقني إلا قليلاً وفقاً لعقلية الزنجي الذي ما زال إلى اليوم يكتم آلامه ليثبت للرجل الأبيض مدى ما حققه من تقدم، ثم إن هذه الأوصاف لم تعد تؤثر لكثرة ما سمعتها.

كانت المباراة تختتم بحفل راقص كنت أنعزل فيه وأشعر بالحرج أحاول ألا يلاحظ ذلك أحد. فلقد كان الحاجز الذي كنت أحس به في المدرسة يتبلور هنا بوضوح. كنت أدرك

تلقائياً أنه ممنوع عليَّ مراقصة بنات البيض على الرغم من التفتح والابتسام، ولم يكن المانع يأتي منهن وحسب، ولكنه كان يأتي مني أيضاً. أنا أتعجب كيف واتتني الجرأة على البوح بكل هذه الأشياء. كنت أبقى في تلك الحفلات متصلباً أتكلم وأكل الساندويتشات وأبتسم حتى تحين الفرصة فأتسلل خارجاً والحفلة ما تزال في بدايتها.

كانت حفلات من ذلك النوع المعروف في المدن الصغرى، تستأجر لها فرقة موسيقية صغيرة بيضاء من لانسينغ، أو يكتفي فيها بإدارة اسطوانات مخدوشة في فونوغراف يرفع صوته إلى أقصى حد فيجلجل بأغنيتي فرقتي غلين ميلر وإنك سبوت: "مون لايت سيرينايد" و "إف آي ددنت كار" اللتين كانتا أغنيتي الموسم الناجحتين.

في تلك الأثناء حيرني أمر غريب. كان أصدقائي من التلاميذ البيض من مايسون كما في لانسينغ يحرضوني على معاكسة بنات جنسهم ومن بينهن أخواتي ويقولون لي إنهم على علاقة بهن، حتى إذا ما نجحت الخطة استعملوها كمساومة مع البنات. كانوا ولا شك يحسبون أنني أفهم أكثر منهم في هذه الأشياء لأنني زنجي. وفطنت إلى الحيلة فلم أقل لأحد عندما تعرفت بالفعل إلى بنتين من البيض، إلا أن علاقتي بهما لم تدم،

نظراً لأنني وجدت الحاجز أقوى من أن أرفعه، فانصرفت إلى التفكير في زنجيتين كنت قد رأيتهما مع وبلفرد وفيلبرت دون أن أجد عندي الشجاعة الكافية لمفاتحتهما في الموضوع

كان الاختلاط موجوداً في لانسينغ وكنت أراه في ليالي السبت التي كنت أقضيها في الحي الزنجي حيث كان هناك مكان معروف يأتي إليه البيض بسياراتهم لالتقاط النساء. كما كان نساء الحي البولوني وغيره يعبرن الجسر إلى الحي الزنجي لالتقاط الرجال.

وفي منتصف السنة الدراسية انتخبت لدهشتي قيما على الصف الأول ثانوي بسبب درجاتي العالية من جهة، ولوني الذي جعلني بمثابة الثور الأبلق من جهة أخرى ففرحت بذلك فرحاً شديداً. لن أزعم الآن أنني لم أفرح، خصوصاً وأنني لم يكن لي حينذاك أي موقف من البيض، بل كنت على العكس أعمل جاهداً لأصبح منهم ولذلك فإنني أتكلم على تجربة عندما أقول للإنسان الأمريكي الأسود، المؤمن بالاندماج إنه يضيع وقته. لقد حاولت قبله، وفشلت.

ووصل خبر انتخابي مسز سويرلينغ فقالت لي: "نحن فخورون بك يا ملكوم"! وسمع به موظف المساعدة الاجتماعية فقال لي: "لقد! كنت مثالاً حيا على معنى كلمة إصلاح". كان رجلاً ذا

مروءة لولا أنه كان يوعز لي أن أمي لم تقم بواجبها معنا

كنت قد دخلت عامي الرابع عشر وكنت أزور آل لاينز وجوهانا وإخوتي فكانوا يفرحون بزياراتي. وكانت هيلدا تعتني بالبيت جيداً بعد ما خلا وخفت أعباؤه. وكان وبلفرد يعمل ويقرأ بينما كان الجميع يتكهن لفيلبرت بمستقبل زاهر في الملاكمة. وكنت أزور ريجينالد الذي كان قد نسى فضيحتي في الملاكمة، كما كنت أزور روبيرت وإيفون في بيت مسز ماك كاير فاطمئن إليهما إذ أجدهما على أحسن حال.

لم تكن تتكلم على أبينا بالمرة، في حين لم نكن نتكلم على أمنا، قليلاً أو نحب أن يذكرها أحد بسوء، وكنا نزورها أحيانا على انفراد. ومرة واحدة زرناها جماعة، وكان ذلك عندما جاءت أختنا من أبينا إيلا من بوسطن والتي كان لزيارتها أثر سحري عليَّ إذ وضعتني وجها لوجه مع امرأة سوداء شامخة الكبرياء، تنظر إلى لونها باعتزاز شديد. كانت تراسل وبلفرد وهيلدا وكنت قد كتبت لها رسالة ورجعت من المدرسة ذات يوم فوجدتها. كانت أضخم من مسز سويرلينغ شديدة السواد مثل أبي وفي مستوى كل ما سمعته عنها. احتوتني بين ذراعيها ثم تراجعت لتتأملني وكل ما فيها ينم عن شخصيتها القوية.

ونظرت إليها وقلت في نفسي: "هذه إذن هي إيلا التي كان

أبي يفخر بها ويقول إنها ساعدت العدد من أفراد أسرتنا على الرحيل من جورجيا، وإنها تملك عقارات وتعرف شخصيات". ذهبت إلى الشمال معدمة وتزوجت طبيباً فساعدت أختها على الالتحاق بها ثم أخاها فابن عمها فابن عمتها.

كان وبلفرد وهيلدا قد أخبراها بانتخابي قيما على صفي، فسألتني عن درجاتي وانطلقت كالسهم وأحضرت لها ورقة النتائج فسرت بها. وسألتها أنا عن أبيها أورلي وأختها ماري فقالت إن أولي يغني تحت اسم مستعار وإن ماري بخير، ونقلت إليّ أخبار أقربائها الآخرين من جهة أمها الذين لم أكن أعرفهم والذين كانت قد أعددت لهم أيضاً عملاً عن طريق الخروج من جورجيا ففعلوا الشيء نفسه مع غيرهم. وقالت إن أفراد عائلتنا في بوسطن، ميسورى الحال وإن منهم الملاك والتجار وأضافت: "إن علينا نحن أبناء ليتل أن نتضامن فهزني قولها ونبرة صوتها وقد ذكرتني بأصلي الذي كنت قد نسيته بعدما تبعثرت أسرتنا وأصبح اسمي "طالع السعد". وأخذتنا لزيارة أمنا فشعرنا بالامتنان لها واقتنعنا بأنها قادرة على إخراجها من المستشفى.

وجئ بأمنا وهي تبتسم ثم ظهرت عليها الدهشة عندما رأت إيلا. وتعانقنا فبدتا على طرفي نقيض. وأذكر أن الزيارة انطبعت

بكلام كثير وبشخصية إيلا وتفاؤلنا وشعوري لأول مرة بأن الأمر يتعلق بمرض عضوي طال أمده. وأنهت إيلا زياراتها لكل البيوت التي نقيم فيها، ثم رحلت بعدما أوصتنا بمراسلتها وأكدت على أن أزورها في العطلة الصيفية فمضيت أترقب الصيف.

وما إن حل حتى لبست بدلتي الخضراء وحملت حقيبة من ورق واتجهت نحو محطة غرايهاوند للحافلات. ولو أن أحد علق على رقبتي علامة "من القرية" لأجاد في وصفي وأجاز. كنا في عام 1940 ولم تكن هناك كل هذه الطرق السيارة الموجودة الآن فكانت الحافلة تتوقف عند كل منعطف ومرعى وأنا من مقعدي في المؤخرة: نعم في المؤخرة، أحملق لمدة يوم ونصف.

استقبلتني إيلا في المحطة وأخذتني إلى بيتها في شارع وومباك، الواقع في منطقة شوغر هيل بحي روكسبري الذي يوجد في هارليم بوسطن. وهناك تعرفت إلى زوجها الثاني فرانك الجندي في الجيش، وعلى أخيها المغني وأختها ماري التي تختلف عنها إلى حد كبير. إن من الغريب أن أعتبر ماري أخت إيلا وليس أختي مثل إيلا، ولعل ذلك راجع إلى أن إيلا تشبهي بحزمها وعزمها، في حين أن ماري رخوة ووديعة وخجولة.

وأخذتني إيلا إلى العديد من أندية ما سمى بـ "المجتمع الأسود" التي كانت تترأسها، حيث اكتشفت بذهول زنوجاً

يحاكون لهجة المدن الكبرى وأسلوب حياة البيض، وسمعت لأول مرة بزنوج دترويت ونيويورك وشيكاغو. كنت أخرج في الليل، وخصوصا في ليالي السبت وأجد مركز روكسبري يغض بالزنوج وأضواء النيون وأندية ليلية وقاعات وبارات وسيارات يقودونها، وأتعجب. لم أكن أعرف أن العالم فيه كل هذا العدد من الزنوج. كنت أجد رجالاً سوداً يتأبطون أذرع نساء بيضاوات، والشوارع عابقة بروائح الطعام الزنجي وضاجة بأغاني إرسكين هاوكينز وديوك الينغتون وكوتي وليامز وغيرهم ممن جمعتني بهم الظروف فيما بعد. وكانت فري سوى من مستوى هذه الفرق تأتي إلى مرقص روزلاند في شارع ماساشوسيت لتعزف ليلة للسود وليلة للبيض.

وذهب مع إيلا وماري إلى الكنيسة فوجدت زنوج بوسطن "يتعبدون بهدوء كما يفعل البيض في مايسون، بل يرتمون على العبادة روحاً وجسداً.

وكتبت للجميع عن طريق فيلبرت فقلت لهم إن ما رأيته لا يمكن أن يوصف في رسالة أو رسالتين أو ثلاث، وإنني سأحكي لهم كل شيء بالتفصيل، عندما أعود ولكنني لم أفعل. كنت قد تركت نفسي، بعدما رجعت، في بوسطن فشعرت بالوحشة ولم أعد أطيق البيض. ولاحظ الجميع ما طرأ عليَّ من تغيير،

وقالوا لي: "أنت على غير عادتك يا ملكوم. ماذا حدث؟!

وبقيت على الرغم من ذلك أتنافس على الرتبة الأولى في الصف مع بنت اسمها أودر يسلو وولد اسمه جيمن كوتن. ثم وقع شيء غير مجرى حيا. كنا في بداية السنة الثالثة ثانوي وكنت في الصف مع المستر ستراوسكي، أستاذ اللغة الإنجليزية الذي كان رجلاً طويلاً، محمر البياض، ذا شارب كثيف، والذي كنت قد حصلت منه على بعض أجود درجاتي، واستشعرت أنه يحبني، والذي كان كما سبق القول يغالي في إسداء النصح إلينا حول ما يجب علينا أن نقرأ أو نفعله أو نعده، والذي كنا نسخر منه فيما بيننا ونقول: "لو كانت نصائحه تنفع لنفع بها نفسه لما قضى دهره في مدرسة في مايسون".

المهم أنه قدم لي نصيحة ذلك اليوم، التي لم يقصد بها إحراجي أو اهانتي، والتي إنما تبعت من موقفه كرجل أبيض في أمريكا. كنت من أجود تلاميذه، بل كنت من أجود تلاميذ المدرسة كلها، ولكنه تنبأ لي بذلك المستقبل الذي يتنبأ به معظم البيض للسود بـ " لو كنت مكانك لـ..." قال لي: "هل فكرت في مستقبلك"؟ قلت محامياً. لم يكن في لانسينغ أي محام أو طبيب زنجي فكيف خطرت محاماة ببالي؟ كنت أعرف ذلك جيداً، ولكنني كنت أعرف أيضاً أن المحامي لا يغسل الصحون. وظهرت الدهشة على وجه الأستاذ واعتدل

في جلسته وقال وهو: ويديه خلف رأسه ويهم بالابتسام: "إن علينا أن تكون واقعيين في الحياة. لا تسيء فهمي فنحن كما تعلم نحبك، ولكنك تحلم بالمستحيل. يجب أن تفهم أنك زنجي وأن المحاماة مهنة غير واقعية بالنسبة لك. أنت ممتاز في دروس النجارة والجميع يعرف ذلك، فلم لا تفكر في أن تصبح نجاراً. إن لك شخصية محبوبة ولن تجد صعوبة في التعامل مع العملاء". لم أنسى كلامه هذا أبداً، وظل كلما ذكرته يحز في نفسي، لاسيما وأنه شجع كل التلاميذ البيض على ما أرادوه. وكان معظمهم يريد أن يكون مزارعاً ليتسلم أراضي آبائه أو أن يمارس مهنة حرة ليتخلص من نفوذهم في حين أراد ولد أن يكون موظفاً في إدارة قروية، وآخر أن يكون بيطرياً، بينما أرادت البنات أن يكن معلمات باستثناء واحدة أرادت أن تكون ممرضة، ولم يخيب لأحد رجاء. ومع أنني كنت متفوقاً عليهم، لم أكن مؤهلاً في نظرهم لأن أكون ما أريد.

وأصبح درس هذا الأستاذ ثقيلاً وأصبح لقب "الزنجي" يوقفني، ولم أعد أرد عليه أو على مَنْ يسألني عما بي. واحتاروا في أمري وناقشوه فيما بينهم، ثم ما لبث أن أصبحت تلك هي حالي في المطعم وفي بيت آل سويرلينغ.

وذات يوم استدعتني مسز سويرلينغ، وذهبت إليها في غرفة

الجلوس فوجدت الموظف الحكومي المستر ماينارد آلن معها، ومنظرهما يوحي بالخطورة، وقالت إن أحداً لا يعرف لماذا أنا حزين على الرغم من تفوقي في الدراسة وحسن سلوكي وما يكنه لي الجميع من مودة وأنه قد تقرر تبعاً لذلك أن أنتقل إلى بيت لاينز حتى تنتهي السنة الدراسية ثم وقفت ومدت لي يدها قائلة: "لقد سألتك مائة مرة يا مالكوم وسأسألك مرة أخرى، ما بك؟ ألا تريد أن تقول لي؟" فشددت على يدها وقلت لها: "لا شيء يا مسز سويرلينغ". وذهبت إلى غرفتي وجمعت أشيائي وعندما نزلت وجدتها تجفف دمعها فشكرتها ومضيت على أسوأ حال.

وبقيت أزور أخوتي أيام السبت وأكتب لإيلا تقريباً يوماً بيوم إلى أن قلت لها ذات يوم إنني أريد أن أنتقل إلى بوسطن،فقامت بكل الإجراءات الضرورية لنقل كفالتي من ولاية ميتشيغن إلى ولاية مساشوسيت.

الفصل الثاني

لــورا الفتاة السوداء

ويواصل مالكوم إكس حديثه عن فترة شبابه في بوسطن قائلا:

كان صديقي «شورتي» يأخذني إلى حفلات صاخبة، مليئة بالحركة والحيوية والموسيقى، تعرفت فيها إلى صديقات لطيفات وأصدقاء يستعملون لغة راقية لم ألبث أن تعلمتها.

وعلى غرار آلاف زنوج القرية النازحين، اكتسبت جميع التقاليد المعمول بها في الأحياء الزنجية بالشمال مثل البدلة الفضفاضة وتسريحة الكونك والإقبال على المشروبات الروحية ولكنني بقيت أعاني في سري من نقص عدم الرقص.

ثم بدأت أتعلم الرقص في هذه الحفلات وساعدت الخمر والمخدر والموسيقى الصاخبة الصادرة من المسجلات على تفجير غزيرتي الإفريقية، وجاءت فتاة وجذبتني لأن من غير المعقول أن يأتي المرء إلى هذه الحفلات ثم لا يرقص فانطلقت، هكذا من من دون مقدمات كأن أحد ضغط على زر.

كنت أحسب نتيجة لما كنت أراه في حفلات البيض في

لانسينغ أن الرقص صعب ومقنن، ولكنني وأنا بين أبناء قومي على الأقل، وجدت الأمر لا يعدو أن يترك المرء لجسده حرية التصرف على إيقاع الموسيقى.

ومنذ ذلك اليوم عوضت ما ضاع. وبدأت أحضر كل الحفلات وأقوم للرقص دون أن يدعوني أحد وأرقص حتى ينقطع نفسي. وتعلمت بسرعة كما هي عادتي. كنت أشتغل وأتمرن على إيقاع أكبر الفرق وأفرقع خرقة التلميع وأدق الأرض بقدم حتى أدوس على أقدام الزبائن البيض فيضحكون.

وعندما سمعت أن (ليونيل هامبتون) سيحيي حفلة السود، أشعرت المدير مقدماً بأن يبحث له عن ماسح أحذية جديد. وسرت (إيلا) بالخير وانفجرت بالضحك عندما قلت لها إنه لم يكن بوسعي أن أمسح الأحذية وأرقص. وأخبرت شورتي فقال إنه كان يعرف أنني سأترك ذلك العمل إن عاجلا أو آجلاً.

كان شورتي يرقص، إلى حد ما، ولكنه لم يكن يحب الحفلات والأجواق الكبرى، وكان يعتقد أن معظم العازفين مقلدون. كان كل همه في سكسوفونه وفي جوني هودجز وفي اليوم الذي تصبح له فيه فرقته الخاصة.

وفي اليوم التالي لتركي العمل، مشيت إلى متجر الملابس الرجالية، وراجع التاجر سجله فوجد أنني لم أدفع قسط

الأسبوع الماضي، وقلت له إنني تركت عملي بالأمس فقط، فقال إنه يمكنني التأخر في الدفع أسبوعين آخرين إذا دعا الأمر لأنه يثق بي. وجربت كل ما لديه في مقاسي ثم اخترت بدلتي الفضفاضة الثانية، وكانت رمادية بسترة واسعة وطويلة وبنطلون يتسع ثم يضيق إلى درجة أنه كان عليَّ أن أخلع الحذاء لأقيسه. وبإلحاح من التاجر اشتريت قميصا وقبعة وحذاء آخر موضة، برتقاليا داكنا بنعل رقيق ورأس مدور، وبلغ مجموع الثمن سبعين أو ثمانين دولارا. كان يوماً ميموناً ذهبت فيه أيضاً إلى الحلاق ولينت شعري.

كنت أعد نفسي لأكون نجم السهرة التي كانت كل روكسبوري ستحتشد فيها تلك الليلة. وفي بهو قاعة روزلاند رأيت بعض متأنقي الحي يتطلعون في بدلتي وبعض الفتيات يلاحقنني بنظراتهن. وصعدت إلى بيت الراحة وأنا أختال لأشرب من الزجاجة التي أحتفظ بها في جيب سترتي الداخلي، فوجدت ماسح الأحذية الجديد، ولد أسمر مغبر وخجول ذو وجه ضيق، يبدو عليه أنه لا يأكل قدر كفايته. ونظر إليَّ مبهوراً عندما عرفني. فقلت له أن يتمالك نفسه وأنه لن يلبث هو الآخر أن يلحق بالركب.

ورجعت إلى القاعة فوجدت كل شيء على ما يرام. الجوق

يعزف والحلبة تكتظ بالراقصين وهم يتطايرون كالمجانين، ووجدت فتاة لا أعرفها فبدأنا نقفز ونبتسم في سعادة. كنت قد تمرنت في غرف ضيقة والآن كل هذا المجال لي.

واكتمل توقدي ومرونتي فبدأت أنزل على البنات وأجذبهن كالمجنون وألف بهن بسرعة حتى تصطفق أثوابهن. كن من كل نوع. سود وسمر وصفر وبنتان شقراوان كانتا هناك. كنت أقذف بهن في الهواء من فوق خصري وكتفي وأدق الأرض بقدمي وأنبطح قبل أن يصلن إلى الأرض. كنت قويا، ممتد القامة هزيلها، فكنت أبدو في الواحدة والعشرين مع أنني لم أكن أتعدى السادسة عشرة. لم تشهد قاعة روزلاند حفلاً في هذا النوع بعد تلك الليلة إلا كنت أول الحاضرين فيه.

كانت أجودهن رقصاً فتاة سوداء اسمها لورا تعرفت إليها في عملي الجديد. ذلك أن إيلا من فرحتها بتركي مسح الأحذية، بادرت إلى إيجاد عمل جديد لي في صيدلية تاونزاند القريبة من بيتها يقضي بسقي الزبائن من آلة المرطبات.

ضايقني الخبر لأنني لم أكن أطيق تلك الأنماط من سكان المرتفع، ولكنني أقل شيئاً ثم ما لبثت أن وجدتني في سترة بيضاء وأنا أسقي أولئك المتأنقين. وبدأت إيلا تقول لي عندما أعود في الثامنة مساء: "أرجو أن تتعرف إلى أقرانك من هؤلاء

الشباب". ولكن سكان المرتفع الذين كانوا يعانون ويلات الفقر ويأتون المشرب وهم يتعجرفون وكأنهم يملكون مال قارون، أقراني منهم وغير أقراني، كانوا يضايقونني. كانت هناك مثلاً تلك العجوز التي تخدم في بيوت البيض وتأتي بلهجتهم وحركاتهم وسكناتهم وتطلب حلوى للجميع على حسابها من مسلى يهودي. وتلك العاملة في كافتريا المستشفيات التي كانت تأتي يوم عطلتها وهي تطوق رقبتها بفرو قط وتتبجح بأنها لا تأكل اللحم، وذلك الشاب الذي كان يقلد البيض إلى درجة أنك لو سمعته ولم تره لما خطر ببالك أنه أسود، كرهني في المشرب إلى درجة أنني بدأت أنتظر الثامنة بفارغ الصبر. وحين كانت تصل أخيراً كنت أنطلق إلى البيت وأتعشى وألبس بدلتي الفضفاضة وأقصد ملهى في الحي الفقير لأرقص وأفعل أية مصيبة تنسيني المرتفع وأنماطه.

وذات ليلة لعبت بعشرة سنتات في رهان جري بالصيدلية وربحت ستين دولاراً فاشتريت كرة بدأت ألعب بها مع شورتي، ولو أنني ربحت في رهان الخير الذي كنت ألعبه بالقرض وأصرف عليه دولاراً كل يوم، لتركت هذا العمل ولاشتريت سيارة، ولكن ما علينا، المهم أن لورا كانت تسكن قرب الصيدلية وتأتي إلى المشرب بعد ما تخرج من المدرسة فتطلب آيس كريم على

الموز، وإنني بدأت أشرع في إعداد طلبها كلما رأيتها قادمة من بعيد، وبعد حوالي شهر تأكدت أنها مختلفة عن الآخرين. طبيعة ومهذبة. كانت تبقى نصف ساعة، تراجع دروس اللاتينية والجبر في كتب سميكة وتأكل الآيس كريم.

لم تكن تتعدى عبارات التحية مع الآخرين وعبارات الشكر معي وكان صوتها جميلاً في هدوء ورقة. وأعجبني فيها أنها لم تكن تستعرض تحضرها. وفتحت معها باب الحديث ذات يوم فوجدت أنها تلميذة متفوقة في المرحلة الثانية من الثانوي، تحب المدرسة وتفضل الجبر والمواد العلمية، وأن أبويها انفصلا وهي طفلة فربتها جدتها، عجوز صارمة وتقليدية ومتدينة تعيش من المعاش، وأن لها صديقة واحدة لا غير في كامبريدج تكلمها هاتفياً يومياً، وأن جدتها لا تسمح لها بالذهاب إلى السينما فضلاً عن الخروج مع الشباب وأنها تنوي مواصلة دراستها الجامعية في كلية العلوم.

وقدرت سنها من متن كلامها، فوجدت أنها تكبرني بسنة، ولكن ذلك لم يخطر لها بالطبع على بال. كانت تنظر إلي وكأنني أكثر منها خبرة، ولكنني شعرت بالإحباط بعد ذهابها لأنني أدركت إهمالي للكتب التي كنت أحبها وأنني لم أقرأ شيئاً منذ تركت مايسون ولا حتى صفحة في جريدة.

بعد ذلك بدأت أترقب مجيئها وأدفع عنها وأكثر لها من الآيس كريم وبدأت هي تترك كتبها جانباً وتكلمني، ثم بدأت تستدرجني للحديث عن نفسي إلى أن قلت لها إن أمنيتي كانت أن أصبح محامياً فأمسكت بتلابيبي وبدأت تقول وتعيد: "يجب أن تواصل دراستك وتصبح محامياً. كانت على يقين أن (إيلا) ستساعدني. ولو أن إيلا عرفت أنها تستطيع أن تساعد فرداً من العائلة ليصبح أستاذاً أو طبيباً أو شيئاً من هذا القبيل، لما ردتها قوة في الأرض عن ذلك.

كنت أعرف أنها مستقيمة، لا تشرب الخمر فكنت أعرف أنها لن تنسجم مع شورتي وأصحابه، ولذلك لم أقدمها لهم، ولكن فاجأتني يوما عندما قالت لي أنها تحب رقصة الليندي هوبينغ التي اكتشفتها كما قالت في حفلة أقامها صديق زنجي بمناسبة قبوله في هارفارد، وقلت لها ونحن نغادر المشرب: إن فرقة كاونت باسي آتية إلى قاعة روزلاند وإن بإمكانها أن تأتي إذا أرادت، فقالت في انفعال شديد إنها لم تدخل قاعة روزلاند أبداً وأنها سمعت بهذه الفرقة كثيراً وتريد مشاهدتها، ولكن جدتها لن تسمح لها بذلك. وافترقنا على ذلك الأساس، ولكنها جاءت يوم الحفلة وقالت لي أنها ستأتي إن كان بإمكاني أن أرجعها باكراً إلى البيت، وأنها قالت لجدتها إنها ذاهبة إلى نشاط مدرسي.

وقلت لها إن عليَّ أن أذهب إلى البيت لأغير ملابسي فترددت قليلاً ثم قبلت أن تأتي معي. كنت قد أخبرت (إيلا) بالتليفون والتي لم تصدق أن تراني مع فتاة متعلمة من بنات المرتفع. وأذكر أنني ارتديت بدلتي السماوية لأنها أكثر شيء محافظ أملكه، وأنني عندما نزلت وجدت (إيلا) قد أعدت الشاي ودخلت مع لورا في حديث ودي وكأنها تعرفها من زمان بعيد.

وألقت على إيلا نظرة متفحصة ولعلها ارتاحت لأن تراني بالبدلة السماوية وأدركت أنها قد استدرجت لورا إلى أن تبوح لها بكل تفاصيل حياتها وأنها قد بدأت تفكر في تزويجي. كنت ابتسم في سيارة الأجرة وأقول لنفسي لقد برهنت لها على أنني أستطيع مرافقة بنات المرتفع عندما أريد، في حين كانت (لورا) ما تزال تحت أثر الدهشة، ولكنها كانت مطمئنة لأن أحد من معارف جدتها لا يذهب إلى المرقص وقالت إن صديقتها أيضاً لا تصدق، ثم لم نلبث أن وجدنا أنفسنا في بهو لقاعة ووجدتني محاكا بالترحيب والتهليل.

إن رقصة الليندي لا تستوجب أن يعرف الراقص بالضرورة طريقة رقيقة في الرقص. ما عليك إلا أن تدخل الحلبة والبقية تأتي من نفسها. الذين جربوا هذه الرقصة يعرفون قصدي. ما عليك إلا أن تلف وتدق الأرض بقدمك وتوجه الراقصة برفق

بذراع منحنية قليلا في دفع وجذب فإذا هي، إذا كانت جيدة، تقبل وتدبر وتلف في الاتجاه المرسوم لها من دون جهد. وحتى عندما ترمي بها في الهواء فإنها تلحق بك وتواصل الرقص معك في انسجام. أما الراقصة السيئة فهي على العكس ثقيلة الحركة وذات رد فعل بطئ. وكانت (لورا) من النوع الأول في خفة راقصة الباليه ورشاقتها. أنا الآن أغمض عيني وأرى حركات قدميها. كانت ممتازة لولا أنها لم تكن تكمل الرقصة.

فيما بعد قال لي صديق في هارليم اسمه سامي كان يلتقط النساء إن حقيقة المرأة تظهر على وجهها عندما تندمج في الرقص، فتمنيت لو أنني عرفت ذلك يومها. أنا لا أقول إنني كنت سأعرف حقيقة لورا أو أن فسادها الذي نزل على جدتها الصاعقة كان متأصلاً فيها، فلقد قست عليها الحياة وبدأت بذلك عندما وضعتني في طريقها.

كان لا يبقى في الحلبة إلا كبار الراقصين وكانت كبريات الراقصات ينتعلن حينذاك أحذية التنيس، وكان من بينهن مَنْ لا تجد رفيقاً في المستوى حتى آخر لحظة ويبدأ العزف ويختار الجمهور مواقع الفرجة ويستعد لتشجيع نجومه. كنت من النجوم فكنت في قلب الحلبة ومن بين الهاتفين من يقول: "هيا يا أحمر اقض عليهم يا أحمرا"

وجاءتني إحدى المجنونات بالرقص، وهي نادلة في مطعم تسمى مامي بيفيلز فاحترت بينها وبين لورا إلا أن لورا أخذت تقهقر وهي تنظر إليَّ.

كانت الموسيقى تتنامى فأخذت مامي وانخرطنا في الرقص. كانت ضخمة وقوية، ترقص كالحصان الجامح. وكانت قد دخلت "منتخب" رقاصي روزلاند كان الجوق يصطخب فرمت بحذائها وأطلقت صيحة وانتفضت. دخلت حافية القدمين وبدأت ترقص وتصيح حتى اضطر الشاب الذي جاء بها إلى أن يهدئها بالقوة ولكنها أعجبت الجمهور فأصبحت مشهورة.

وهكذا بدأت مامي ترقص بأسلوبها، وبدأت أجرها كما يجر الفرس وعندما خرجنا ونحن نتصبب عرقاً هتف لنا الجمهور وربت البعض على ظهرينا. وأذكر أنني أوصلت لورا إلى بيت جدتها ورجعت، وأنها بدأت تأتي إلى المشرب ولا تكلمني. كنت قد بدأت أعرف النساء فأدركت أنه لا فائدة من الضغط عليهن ليفصحن عما يضايقهن لأنهن سيفعلن ذلك من أنفسهن عندما يؤون الأوان وكانت إيلا تحاصرني بـ: "متى ستخرج لورا؟" و "هل ستأتي بها إلى البيت مرة أخرى؟" و "يا لها من فتاة رائعة"! كانت قد طوقت رقبتي بالزواج وانتهى الأمر

كان كل همي أن أخرج من العمل وألبس بدلتي الفضفاضة

وأنطلق إلى شورتي وأصدقائه وصديقاتهم في الحي الفقير لم أكن أفكر لا في لورا ولا في الزواج وجاءتني ذات يوم وقالت إنها تريدني أن أرافقها إلى الحفلة الزنجية التي سيحييها جوق ديوك الينغتون فقبلت وأنا لا أدري بما يرسمه القدر وقالت لي أن آتيها إلى البيت هذه المرة لأنها قررت أن تخبر جدتها بالحقيقة لم أكن متحمساً لمقابلة الجدة ولكنني ذهبت وفتحت لي، عجوز سوداء من الطراز القديم، وشعر قليل أشيب وأفرجت الباب قليلاً وتركتني بالكاد أدلف دون أن تقول ولا حتى "أدخل" لقد واجهت في حياتي بعد ذلك رجال بوليس ومجرمين ولم يكونوا في جفاء تلك العجوز

كانت غرفة الاستقبال عاجة بصور المسيح وبصلوات محبوكة وتماثيل المسيح وهو مصلوب وتحف دينية أخرى على حرف المدفأة وعلى الموائد والجدران وفي كل مكان وحيث إنها لم تكلمني فإنني لم أكلمها ولكنني الآن أفهمها كيف كنت أريدها أن تستقبلني وأنا بتلك التسريحة وذلك الحذاء البرتقالي؟ الحقيقة أنها تحملت كثيراً عندما لم تطلب البوليس ولو أن أحداً على ذلك الشكل طرق بابي اليوم وطلب رؤية إحدى بناتي لما تمالكت نفسي ولهجمت عليه ثم انصرفت مع لورا منطلقا إلى المرقص.

ورقصنا معاً ومع الغير ثم جاء وقت الفرجة ولم تكن لورا

في مستوى راقصات الفرجة ولكنها أرادت أن تدلي بدلوها فانطلقت لتلبس حذاء التنيس وجاءتني راقصتان حركت لهما رأسي معتذراً وبدأ الجمهور يعاون بالتصفيق وبدأ الهتاف: "هيا يا أحمر هيا!" وبدأنا نرقص فسلطت علينا دائرة الضوء ولم يسبق لهم أن رأوا رقصة الليندي تؤدي بهذه المرونة أو رأوا هذا الأسلوب الرشيق الرقيق حتى أضحت لورا تبدو طائرة في الهواء كانت ترتفع وتنخفض تقبل وتدبر وكنت أرفعها من جنبي الأيمن والأيسر وألف بها وأسير بها إلى الخلف ومرة أخرى ترتفع وتنخفض في حركة لولبية برقة وهدوء بينما باقي الراقصات في عتو وهيجان

وخرجت أسندها وسط الهتاف وهي تلهث وشعرها ثائر ووجهها مبتل من العرق كالملاك المنتصر الذي أفرغ طاقته في الحلبة وخرج منها واقفاً على قدميه وصفق لنا بعض أعضاء الجوق ووقف ديوك الينغتون نفسه وانحنى لنا وعندما يعجب بك الجمهور وقت الفرجة فإنه يهتز لك بالتحية ساعة الخروج فيخبط ويشد ويربت كما يفعل بالأبطال الرياضيين تماماً وهكذا ربتوا على كتفي وأحاطوا بلورا وحملوها على أكتافهم. ورفعت رأسي فوجدت شقراء ترمقني لم يسبق لها أن جاءت إلى الحفلات الزنجية. وشقراء من هذا المستوى، كانت

بشعر قصير وقوام متناسق. أعرف أن ما سأقوله الآن شيء مخجل لقد نسيت في تلك اللحظة لورا التي ما إن تخلصت من الجمهور حتى وقفت مذعورة وقد وجدتني أعود إلى الحلبة لأرقص مع الشقراء.

لم تكن (سأسميها صوفيا) راقصة جيدة، ليس بالمقياس الزنجي على كل حال، ولكن ذلك لم يكن مهما. المهم أن عيون الزنوج كانت مشدودة إلينا. وقلت لها إنها تجسد الرقص وسألتها أين تعلمته ولماذا جاءت إلى هنا خصوصاً وأنها لم تكن من النوع الذي تعودنا أن نراه، فكانت تجيب أجوبة غير محددة، ثم قلت إنني سأوصل لورا وأعود. وفي نهاية الحفلة أخذتني في جولة في سيارتها فأدركت كم أنا محظوظ وساقت إلى خارج بوسطن وانعطفت في طريق وأوقفت السيارة وأسكتت كل شيء ولم تبق إلا صوت الراديو.

بدأت تأتي مرتين في الأسبوع فتجول بسيارتها وأذهب بها إلى مراقص روكسبري وحاناتها لأستعرضها على الزنوج ولا تعود بي إلى بيت (إيلا) إلا بعد مطلع النهار. ولم أعرف أبداً الدافع وراء سلوكها الجرئ معي تلك الليلة. قدرت أن لها سوابق من هذا النوع. ولم أسأل. ما جدوى السؤال؟ إن المرأة في هذه الحالة إما أن تكذب فتظل أنت على جهلك بالحقيقة وإما أن

تقول الحقيقة فتندم على السؤال.

كان يبدو عليها أنها معجبة بي للغاية وكانت تقول إنها تخرج أيضاً مع بعض الرجال البيض للتمويه. وأخذت علاقتي بها كل وقتي فلم أعد أرى شورتي الذي كان من جهته قد تعرف إلى إحدى جميلات المرتفع والذي كان يتباهى بعلاقتي بصوفيا لأن الجميع يعرف أنه صاحب الفضل في تعليمي. كان يناديني ابن بلده. وكانت صوفيا عندما قدمتها له قد عانقته فكاد أن يقضي عليه، خصوصاً وأنه لم يعرف من البيضاوات إلا العاهرات وبعض أنماط تشتغل في مصنع الدقيق.

وبدأ الزنوج يعاملونني باحترام وكأنني لم أكن في نظرهم إلى حين واحداً من ذوي الشعور المليئة والبدلات الفضفاضة، بعدما بدأت أظهر بينهم وهذه الشقراء التي لم تر العين مثلها إلى جانبي، وليس هذا وحسب وإنما شقراء حسناء بسيارة فاخرة تعطيني فوق ذلك كل النقود التي أنفقها. كان حتى كبار البلطجية من أصحاب الأندية وأخطر المقامرين وغيرهم يربتون على ظهري ويجلسونني في أفضل الموائد وينادونني "يا أحمرا" بمودة، ولكنني كنت أعرف دوافعهم كما أعرف اسمي. كانوا يطمعون في المرأة الشقراء التي ترافقني طبقاً لطبيعة الإنسان، القاضية بالرغبة في التميز بشيء يحسد عليه.

ولم تعد (لورا) تأتي إلى المشرب وأنا فيه، وعندما رأيتها آخر مرة كانت قد أصبحت امرأة ساقطة في روكسبري نزيلة سجون. انحرفت وهي في المدرسة الثانوية حيث بدأت تشرب الخمر ثم تدرجت إلى الدعارة ومنها إلى الشذوذ. ولقد عاودني من الشعور بأنني أتحمل مسؤولية ذلك وزادني حسرة أنني فعلت بها ما فعلته من أجل امرأة بيضاء وليس لي من عذر إلا القول بأنني كنت واحداً من الصم العمى.

وعرفت إيلا بالأمر وراقبتني حتى رأتني أنزل من سيارة صوفيا ذات صباح فحولت حياتي إلى جحيم إلى درجة أنني تركت بيتها وسكنت مع شورتي الذي قد أصبح يعيش مع صديقته وبدأت صوفيا تدفع قسطي من الإيجار لأنني كنت قد تركت العمل أيضاً. ثم لم ألبث إن وجدت عملاً آخر في مطعم باركر حيث لبست سترة بيضاء منشأة وبدأت أحمل إلى المطبخ أطباقاً كبيرة من الأليمنيوم يضع عليها النادلون الصحون والشوك والملاعق والسكاكين الفضية. ووصلت ذات يوم متأخراً أترقب الطرد ولكن عمال المطبخ كانوا منشغلين عني بالحديث عن قنبلة فجرها اليابانيون في مكان يدعي بيرل هاربر.

الفصل الثالث

حكاية مالكوم أكس
مع الإيجاء محمد

(كان الايجا محمد أحد دعاة الاسلام بل أحد مدعي الإسلام)

يقول مالكوم أكس عن بداية علاقاته مع الإليجا محمد قائلاً:

كتبت للإيجاء محمد في بيته في العنوان التالي: 6116 شارع ساوث ميشيغان، شيكاغو رسالة من صفحة واحدة أعدت كتابتها عشرين مرة على الأقل في محاولة بائسة لجعلها أوضح خطاً ومعنى. كان خطي رديئاً إلى درجة أنني كنت أنا نفسي غير قادر على قراءته وهو ما أخجل منه وكانت رسالتي تعج بالأخطاء النحوية والإملائية ولكنني بعثت بها. المهم أنني قلت له فيها أنني سمعت به عن طريق إخوتي وأخواتي واعتذرت له عن رداءة خطي وركاكة أسلوبي وكثرة أخطائي.

وجاءني الرد مطبوعاً على الآلة الكاتبة ومذيلاً بتوقيع "رسول الله" فهزني بشدة، في ذلك الرد رحب بي إلى "المعرفة الحقة" وقال شيئاً مهماً، قال: "إن السجين الأسود رمز إجرام المجتمع

الأبيض الذي يبقى السود تحت القمع والفقر والجهل والعجز عن شغل أي عمل محترم فيحولهم إلى مجرمين".

ونصحني بالصبر وضمن رسالته ورقة مالية من فئة خمسة دولارات. وكان من عادته أن يفعل ذلك مع السجناء الذين يراسلونه من كل أرجاء البلاد.

وكان إخوتي وأخواتي يراسلونني بانتظام ويقولوا لي: "ألجأ إلى الله.. صل في اتجاه الشرق" ولكن الصلاة كانت أصعب امتحان مررت به في حياتي كلها. كان الإيمان بتعاليم السيد (إلايجا محمد) كاقتناع نظري سهلاً أما السجود فقد احتجت معه إلى أسبوع كامل من الأخذ والرد. وأنت تعرف الخلفية التي كنت أنطلق منها وأنني لم أثن ركبتي أبداً إلا لإلتقاط قفل بيت أسرقه فكنت أهم بالسجود فأشعر بالحرج والخجل وأتراجع. ذلك أن الاعتراف بالذنب أمام الله وطلب مغفرته شيء عسير على المذنب لأنه كان يجسد لي ذنبي وكنت أعود فأرغم نفسي على السجود حتى تعودت عليه ولكنني عندما نجحت في ذلك أخيراً وقعت ساجداً ولم أعرف ماذا أقول.

ثم انقطعت للعبادة في سجن نورفولك خلال السنوات التالية فملأت عليّ وقتي كما لم يملأ أي شيء آخر. وفجأة تركتني أفكاري السابقة، انزلقت عني كما ينزلق الثلج من على سطح

محدب. كنت أجدني أفكر في شخصي من بعيد وكأنه كيان آخر وكنت أحاول دون جدوى شرح مشاعري في رسائلي إلى السيد (إلايجا محمد) كما كنت أرد يومياً على رسائل أحد إخوتي الذين كانوا يزودونني بالمزيد من المعلومات حول تعاليمه ويبعثون لي بصور أقضي وقتً طويلاً في تفحصها.

فيما بعد كتبت إلى عمدة بوسطن وإلى هاري ترومان رسائل لم يردوا عليها ولعلهم لم يروها قلت لهم فيها إن المجتمع الأبيض يتحمل مسؤولية ما يوجد عليه السود في براري أمريكا الشمالية.

قد لا يصدق الكثيرون ممن كانوا يسمعونني أتكلم شخصياً أو على شاشات التليفزيون أن مستواي الثقافي هو السنة الثالثة من الثانوي فقط والسبب هو الدراسة التي قمت بها في السجن والتي بدأتها في سجن شارلزتاون عندما بهرني (بيمي) بثقافته وقدرته على إدارة دفة الحديث فبدأت أحاكيه واقرأ مثله وإن لم أكن أفهم مما كنت أقرأه إلا ما يسمح به السياق العام.

وهكذا عندما جئت إلى سجن نورفولك كانت دراستي تنحصر في هذا النوع من القراءة. ثم خطر لي أن ألجأ إلى المعجم لمعرفة معاني الكلمات وأن أواظب على تحسين خطى الذي لم يكن رديئاً وحسب بل كان أيضا يزيغ عن الخط المستقيم

بشكل شنيع فذهبت إلى مدرسة السجن وطلبت معجماً ولوحاً وبضعة أقلامٍ وقضيت يومين في تقليب أوراق المعجم على غير هدى. وأذهلني فيه من كلمات فاحترت وقررت أن أبدأ ثم شرعت لمجرد أن أشرع في شيء نسخ الصفحة الأولى بجهد جهيد وخط مخلخل. نسختها على اللوح بنقطها وفواصلها واستغرق ذلك يوماً كاملاً. وفي الأخير قرأت على نفسي ما نسخته بصوت عال مراراً وتكراراً.

واستيقظت في اليوم التالي مزهواً فوجدت ذكرى تلك المفردات في رأسي سرني أنني كتبت كل تلك الكمية من الكلمات التي لم أكن أعلم بوجودها والتي تذكرت بجهد معاني أكثرها. وعدت إلى الكلمات التي لم أتذكرها فراجعتها جيداً. والغريب أنني عندما أفكر في تلك الصفحة تنبثق في ذهني الآن كلمة "دوبل الأرض" وبجانبها صورة حيوان إفريقي، طويل الذنب والأذنين، يسكن في جحور يحفرها تحت الأرض ويعيش من الأغذية التي يصطادها بلسانه الطويل.

وسرني عملي فهجمت على الصفحة التالية فالتالية حتى أنهيت باب حرف الألف. كنت مع كل صفحة جديدة أتعلم المزيد من الأماكن والأعلام والأحداث التاريخية. إن المعجم دائرة معارف مصغرة.

وتحسنت فانتقلت إلى باب حرف الباء وهكذا حتى نسخت المعجم كله خلال المدة المتبقية من سجني أي ما لا يقل بغالب ظني عن مليون كلمة بما فيها الرسائل. وأصبحت قادراً على أن أفتح كتاباً وأفهم ما فيه فأقبلت على القراءة بنهم شديد وأصبحت لا أُرى إلا وفي يدي كتاب ولم تعد هناك قوة على وجه الأرض تستطيع أن تنزعني منه.

كانت مكتبة سجن نورفولك توجد داخل بناية السجن وكان الأساتذة الوافدونِ من جامعتي هارفارد وبوسطن وغيرهما يدرسون بها جملة من المواد كما كانت تعقد فيها مناظرات بين السجناء في مواضيع مثل: "هل تغذية الرضيع بالحليب واجبة"؟

وكانت هذه المكتبة تتضمن كتباً في مواضيع عامة وكان جزء كبير من مجموعة كتب بارهورست ما يزال في صناديقه" آلاف الكتب القديمة بعضها بأغلفة حائلة تبدو لشدة قدمها كالرقع.

وتقدمت فبدأت أقرأ الكتب الجدية ولكن انطفاء الضوء في العاشرة مساء كان يثير سخطي إذا كان يأتي دائماً وكأنما بالقصد عندما أكون غارقاً في موضوع هام. وكان في الممر لحسن حظي مصباح قريب من باب زنزانتي فبدأت أجلس على البلاط وأقرأ على ضوئه بعدما ما تتعود عيناي على العشا الليلي حتى إذا ما سمعت خطى الحارس وهو يمر بالزنازن

على رأس الساعة قفزت بسرعة إلى سريري وتظاهرت بالنوم إلى أن يمر فأعود إلى مكاني وأواصل قراءتي حتى الثالثة أو الرابعة من صباح كل يوم بحيث لم أكن أنام إلا ثلاث أو أربع ساعات في الليلة ولكن ذلك لم يكن مهماً لأنني كنت قد تعودت على قلة النوم وأنا في الشوارع.

وكان قد أثار انتباهي بشدة كلام السيد محمد الايجا عن احتكار الرجل الأبيض للتاريخ ونسبته إياه وطمسه على آثار الرجل الأسود ولم أكن فقد نسيت درس التاريخ الأمريكي في السنة الثانية من الثانوي بمايسون الذي غطى فيه تاريخ الزنوج بفقرة والذي أمتع فيه الأستاذ نفسه بنكتته عن ضخامة الأقدام الزنجية التي تترك حفراً في الأرض.

وإذا كانت تعاليم السيد محمد قد انتشرت في أمريكا ووصلت حتى إلى الزنوج الذين لم يسلموا لذلك لأنها تعكس واقعهم إذا كان بالفعل لا يكاد يكون هناك زنجي واحد أو حتى رجل أبيض واحد سبق له أن قرأ في كتاب أي شيء عن دور السود في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية.

وحدت بي نظرية السيد محمد حول تكوين الرجل الأبيض إلى قراءة كتاب اكتشافات في علم الوراثة للراهب الاسترالي مانديل بعدما رجعت إلى المعجم لمعرفة المقصود بعلم

الوراثة. قرأت هذا الكتاب وأخذت قراءته ودرست الأجزاء التي تقول أن بالإمكان الوصول إلى تكوين جنس أبيض انطلاقاً من الجنس الأسود ولكن العكس مستحيل لأن الكروموزومة البيضاء بطبيعتها تنازلية. وحيث إن هناك إجماعاً على أنه كان لا يوجد إلا إنسان أول واحد فإنه من البديهي أنه كان أسود.

ووجدت في هذا الكتاب أوصافاً لما تعرض له العبيد من أهوال فأثرت في إلى درجة التي بدأت استعملها في مخاطبتي للسود عندما أصبحت داعية للإسلام إلى جانب السيد محمد. وأن الجرائم التي تعرض لها الإنسان الأسود في أمريكا منذ وطأت قدمه ترابها كان لتفوق كل ما تعرض له تاريخ عبوديته المرير كما يقول فريدريك أولمستيد.

وقرأت ما كتبته الأوروبية التي تزوجت أحد ملاك العبيد في الجنوب والتي قالت إنه كان يحط من قدرهم إلى ما دون رتبة البشر. وقرأت بالطبع "حجرة العم طوم" ولعلها الرواية الوحيدة التي قرأتها ضمن الكتب الجدية. وكان هناك بين مجموعة باكهورست مناشير جمعية أنصار إلغاء تجارة الرقيق في منطقة نيو إنغلاند فقرأتها أيضاً وقرأت عن أصناف التعذيب التي كانت تمارس على العبيد ورأيت صور إماء شددن بالحبال وضربن بالسوط وأمهات تنزع منهن أطفالهن إلى الأبد

وكلاب تطارد العبيد ومتعقبي العبيد وهم مدججون بالأسواط والهراوات والسلاسل والمسدسات. وقرأت أن الزنجي (نات تورنز) كان عندما يخاطب الأسياد يركز على خشية الله. لم يكن من ذلك النوع الذي يعد الزنوج بالعقبة في الدار الأخرى ويدعوهم إلى كسب حريتهم "بالطرق السليمة". وفي 1931 قاد تمردا استمر ليلة واحدة بدأه بسبعة عبيد وأنهاه بسبعين وقتل فيه سبعة وخمسين من البيض وأرهب الباقين فاعتصموا بالبنايات العمومية والغابات أو خرجوا من الولاية إلى غير رجعه. واحتاجت فرقة من الجيش شهرين للقبض عليه وتقديمه للمشنقة. إن عملية (تورنز) هذه ألهمت بعد ثلاثين سنة جون براون في تخطيطه لغزو فرجينيا والهجوم على هاربر فيري بمساعدة ثلاثة عشر رجل أبيض وخمسة زنوج.

وقرأت (هيردوتس) أبي التاريخ أو بالأحرى قرأت عنه وقرأت تاريخ الأمم ففتح عيني على كون الرجل الأبيض أينما كان يتصرف تصرف الشياطين فينهب ويغتصب ويريق الدماء ويستنزف سكان الأرض غير البيض. قرأت أيضاً كتاب دورانت "قصة الحضارة" وتقارير غاندي عن كفاح الهند لإخراج البريطانيين. وكنت أخرج من كل واحد من هذه الكتب بمزيد من الدلالات على أن الرجل الأبيض استغل شعوب الأرض

أجمعها أسودها وأسمرها وأحمرها وأصفرها على حد سواء وأنه تحت ستار التجارة والمسيحية سخر البحار منذ القرن السادس عشر لإشباع شهرته في النهب والسيطرة.

رأيت كيف استعمل القراصنة الانتهازيون البيض أساليب (فاوست) فجعلوا من مسيحيتهم أداة لشن غزواتهم الإجرامية ورموا باسمها ثقافات وحضارات أخرى بالكفر والوثنية قبل أن يشرعوا في سفك الدماء.

قرأت كيف دخل البريطاني الأبيض الهند في عام 1759 بالغش والمناورة وبها نصف مليار من السكان المتدينين. دخل تحت غطاء شركة الهند الشرقية ثم انتشر انتشارا الطفيليات وعندما ثار عليه بعض السكان قام بتنفيذ ثاني أكبر جريمة إنسانية بعد تجارة الرقيق الإفريقي فقاد مذبحة وحشية لم تكن هناك حاجة إليها اللهم إلا إبادة شعب غير أبيض.

لقد أسفرت تجارة الرقيق عن قتل واستعباد 115 مليون إفريقي أي ما يناهز عدد سكان الولايات المتحدة في عام 1930 . ولما قضى البيض حاجتهم من بضاعة إفريقيا البشرية قامت سلطاتهم، أكلة اللحم البشري بتوزيع مناطق إفريقيا فيما بينها من رأس هورن إلى القاهرة.

كنت قد غرقت في هذا النوع من القراءات حتى لم يعد بوسع

عشر حراس ومدير السجن أن ينتزعوني منها وخرجت بما يدعم رأي السيد إلايجا محمد أن البيض فعلاً عاملوا غيرهم من الشعوب معاملة الشياطين.

إن وسائل الإعلام كانت تعكس خوف الرجل الأبيض من الصينيين ولكنني عندما أسمع مَنْ يقول لماذا يكرهه الصينيون إلى هذا الحد لا تملك الذاكرة إلا أن تعود بي إلى ما قرأته وأنا في السجن عما تعرضت له الصين على يد السفاحين في وقت كان شعبها فيه مكسور الجناح وحسن الظن فقابلوا ذلك بترك تجارهم "المسيحيين" يغرقون بلادهم بالأفيون وينشرون آفة الإدمان بين شبابها. وعندما قامت حكومتها البائسة في عام 1939 بإتلاف 20000 صندوق من الأفيون أعلن عليها الرجل الأبيض ما يعرف بحرب الأفيون. تصوروا أعلنوا الحرب على شعب يرفض أن يتخدر.

وغلبت الصين وأكرهتها اتفاقية نانيكنغ على تعويض الرجل البريطاني الأبيض عن الأفيون الذي أتلفته حكومتها وعلى ترك موانيها مشرعة وتسليم هونكونغ لحكومته وتخفيض الضرائب على السلع البريطانية إلى أدنى حد فأدى ذلك إلى إغراق أسواق الصين بالبضائع البريطانية وعرقلة نموها الصناعي.

وكانت حرب الأفيون الثانية فغلبت الصين من جديد وظهرت

اتفاقية نيانسين التي جعلت تجارة الأفيون في الصين قانونية وأعطت للبريطانيين والفرنسيين حق الإشراف على الجمارك الصينية وعندما حاولت الصين تأجيل مصادقتها عليها نهبت بكين وأحرقت.

وتمرد الصينيون في عام 1901 فرفعوا شعار:" اقتل الشياطين الأجانب البيض"لولكن تمردهم أخُمد فأخرجوا من أحياء بكين الراقية وعلق فيها المتعجرف الأبيض لوحات تقول: "يمنع دخول الصينيين والكلاب". ويتساءلون لماذا أغلقت الصين أبوابها في وجه الغرب بعد الحرب العالمية الثانية؟ لقد مكنها ذلك على كل حال من تحقيق منجزات علمية وصناعية تضمنها كتاب نشرته مجلة لايف. وذكر بعض المراقبين من داخل الصين أن العالم لم يشهد حملة كراهية منظمة ضد البيض كالتي شهدتها الصين التي ينتظر أن يبلغ عدد سكانها نصف عدد سكان العالم ويبدو مع دخولها حقل التجارب النورية أن الفلك قد دار دورته.

ونحن نشهد الآن ظهور نظام دولي عالمي جديد في الأمم المتحدة يمكن أن يقال عنه كما قال ممثل الولايات المتحدة ووصفه بـ "لعبة اللون". ولم يكن على خطأ وإنما كان يجابه الحقيقة وإن كان شجبه ذاك قد بدا شبيهاً باتهام (جيسي

جايمس) لعميد الشرطة بحمل السلاح وكأن البيض لم يمارسوا لعبة اللون على مر التاريخ في أبشع صورها. وهكذا كان السيد الإيجا دون أن يدري قد فتح لي آفاقاً بلا حدود.

ويواصل مالكوم إكس حديثه قائلاً:

واكتشفت الفلسفة فحاولت أن أقرأ معالم تطورها وقرأت بالتدريج معظم فلاسفة الشرق والغرب فأحببت الشرقيين وانتهى بي الأمر إلى استنتاج أن أكثر فلاسفة الغرب اقتبسوا من فلاسفة الشرق. سقراط مثلاً ثبت أنه سافر إلى مصر وأطلع كما تقول المصادر على بعض أسرارها واستقي ولا شك بعض حكمته من حكمتها.

لقد غيرت القراءة مجرى حياتي تغييراً جذرياً ولم أكن أهدف من ورائها إلى كسب أية شهادات لتحسين مركزي وإنما كنت أريد أن أحيا فكرياً. وأظهر لي اكتشافي للقراءة أن الجنس الأسود في أمريكا يعيش أصم، أبكم، أعمى.

وقد اتصل بي هاتفياً من لندن كاتب إنجليزي وطرح عليَّ بعض الأسئلة من ضمنها سؤال عن الجامعة التي تخرجت منها فقلت له: "الكتب".

لقد ألقيت محاضرة في لندن وطيلة مسافة الرحلة بالطائرة ذهاباً وإياباً درست وثيقة حول تفكير الأمم المتحدة في تأمين

حقوق الإنسان بين أقليات العالم التي تعيش تحت القمع فقلت في نفسي أن الأقاليم السوداء في أمريكا هي الأقلية التي تعيش أكبر قمع في العالم وأنه إذا كانت قضيتها لم تتداول فذلك بسبب كلمتي"الحقوق المدنية" اللتين صبغناها بصبغة المحلية. وهل يعقل أن يحصل الإنسان على حقوقه المدنية وهو لم يحصل بعد على حقوقه الإنسانية؟

لو إن الإنسان الأمريكي الأسود فكر في حقوقه كإنسان واستطاع أن يقتنع بأنه أعظم شعوب الأرض لوجد أنه صاحب قضية بحجم ما يعرض على الأمم المتحدة.

ولكن دعني أعود إلى موضوع الإنجليزي الذي سألني عن الجامعة التي درست فيها والذي قلت له إنها الكتب. قلت له أيضاً: إنها "مكتبة جيدة". وبالفعل مازلت لا أركب الطائرة إلا وبين متاعي اليدوي كتاب أريد أن أقرأه وهذا يعني أنني قد قرأت في الطائرة وحدها عدداً هائلاً من الكتب. ولو لم أكون في حرباً ضروساً ضد الرجل الأبيض لأمضيت بقية عمري في القراءة وإشباع رغبتي في المعرفة. ومن هذه الناحية لا أظن أن هناك شخصاً استفاد من السجن كما استفدت أنا منه ذلك أنني لم أكن لأتعلم في الجامعة قدر ما تعلمته في السجن. الجامعة فيه في نظري فوق ما يجب من الملاهي التي تشغل من

الدراسة مثل اتحادات وجمعيات الطلبة وما إليها . وعلى كل حال لم يكن هناك فيما يخصني إلا السجن لتوفير جو يساعدني على مكافحة جهلي والتصدي له بالدراسة المستفيضة التي كانت تستغرق أحياناً خمس عشرة ساعة في اليوم.

قرأت شوبنهار وكانت ونيتشه. لذكرهم من باب الافتخار وإنما لمجرد ذكر أسماء من قرأت لهم سيما وأن الفاشية والنازية قد قامتا كما يقال على أفكارهم على ذلك أنهم كانوا يمضون أكثر وقتهم في مناقشة السفاسف.

وأثر في (سينوزا) بعض الوقت عندما اكتشفت أنه أسود، يهودي أسباني قال بوحدة الوجود فكفره اليهود وصلوا على روحه تلميحاً إلى أنه مات في نزرهم.

دعني أقول لك. لقد وجد تيار الفلسفة الغربية نفسه في مأزق. حفر للإنسان الأسود حفرة سقط فيها. سقط بعناية مرضية لطمس معالمه وها هي اكتشافات الحفريات في إفريقيا تدل على أن الإنسان الأسود بنى حضارات عظيمة في الوقت الذي كان الرجل الأبيض فيه لم يخرج بعد من كهوفه. أجل في الأراضي الموجودة جنوب الصحراء الكبرى، أراضي أسلافنا يتم استخراج منتوجات ومنحوتات وأشياء تعود إلى حقب قديمة وتعد من أروع ما أبدعته يد الإنسان. ومتحف نيويورك للفن الحديث يعرض منها

حالياً مجوهرات ذهبية وأشياء فريدة أخرى.

لقد طمس الرجل الأبيض على تاريخ السود إلى درجة أن الأساتذة السود أنفسهم لا يعرفون منه إلا النزر اليسير. وعندما حاضرت في الكليات السوداء هرع دكاترتها، مغسلو الدماغ، المتخلفون عن الركب بخمسين عاماً والذين يسحبون وراءهم أذيال شهادتهم، هرعوا إلى الصحافة واتهموني بالعصبية. ولو كنت عميداً في إحدى كلياتهم تلك لأغلقتها إن دعا الأمر ونفيت طلبتها إلى أفريقيا لينقبوا عن المزيد من البراهين التي تثبت عظمة جنسنا. ولكن الرجل الأبيض هو الذي يحفر في أفريقيا وينقب حتى أن فيلا واحداً لا يكاد يتحرك هناك دون أن يتعثر في رجل أبيض يحمل مجرفة في يده وحتى أنه لا يكاد يمر أسبوع دون أن تقرأ عن اكتشاف المزيد من حضارة أفريقيا المفقودة. وليس الجديد في أنها موجودة ولكن الجديد في أن الرجل الأبيض ساهم في استخراجها.

فيما عدا السجن هناك مجالان آخران استفدت منهما فائدة كبرى واكتشفتهما أيضاً في سجن نورفولك. الأول شروعي في تنبيه أخواتي الغافلين السود إلى حقائق هامة حول جنسهم والثاني دخولي جلسات المناظرات التي كانت تعقد في السجن والتي اكتسبت فيها خبرة مخاطبة الجماهير.

ويجب هنا أن أعترف بشيء محزن ومخجل. كنت لشدة ما تعودت على رفقة البيض أكره أن أرى تكتلات السود في السجن ولكنني عندما عرفت السيد (إلايجا) بدأت أكفر عن ذنبي بدعوة السود إلى الانضمام إليه. كان عليَّ أن أكون شديد الحرص وأنا اكتشف للسود حقائق يسمعونها لأول مرة عن أنفسهم وبني جنسهم وعن البيض. وكان أخي ريجينالد قد قال لي إن كل الدعاة المسلمين يواجهون هذه الصعوبة لأن "الأخ" الأسود على حد تعبيره تعرض لعملية غسل الدماغ بما يكفي لجعله ينفر من الحقيقة عندما يسمعها لأول مرة ونصحني بالكشف له عنها تدريجياً وترك ما كشفت له عنه يرسخ في ذهنه قبل تزويده بالمزيد.

وبدأت بمحادثة زملائي السجناء السود عن تاريخهم فقلت لهم أشياء لم يكونوا ليتصوروها حتى في المنام. كشفت لهم عن حقائق تجارة الرقيق قلت لهم إن بعض العبيد كانوا يتكلمون العربية ويدينون بالإسلام عندما جاؤوا من أفريقيا ولكن الكثيرين منهم لم يكونوا ليصدقوني حتى أثبت لهم أن رجل أبيض قال ذلك. ولذلك كنت أقرأ عليهم مقاطع من كتب ألفها بيض. وكنت أقول لهم إن بعض البيض العلماء يعرفون ذلك ولكن مؤامرة إخفاء الحقيقة عن السود تواترت عبر الأجيال.

كنت أكلمهم وأراقب وقع كلامي عليهم وكان من بينهم من كان من الغفلة والخنوع بحيث كان يحرك رأسه ثم يهرع إلى البيض ليخبرهم. أما الذين كانوا يقتنعون فكنت انتظر حتى أتوسم فيهم الاستعداد التام فأنفرد بهم وأتوكل وألقيها في وجوههم: "الرجل الأبيض شيطان" حسب ما ورد في تعاليم السيد محمد إلايجا فكان الكثيرون منهم يتقبلونها أولا ثم يغيرون رأيهم بعدما يفكرون فيها جيداً.

لقد انتشر الإسلام بين السود في السجون الأمريكية على يد سجناء مسلمين سود وأقلق ذلك بال المسؤولين سيما وأن عدد السود في السجون يفوق نسبتهم بين مجموع السكان. وساعد على ذلك أن السجين الأسود مؤهل لتقبل عبارة "الرجل الأبيض شيطان". ذلك أنه باستثناء ما يدعى بالمثقفين السود البدناء، السعداء، الصم، البكم، العمى، المهووسين بالاندماج والذين يعيشون على بقايا البيض فإن عبارة "الرجل الأبيض شيطان" تفعل فعلها في السود دائماً. قد يحتاج ذلك ليوم او شهر أو سنة وقد لا يأتي بطريقة علنية أبداً ولكن كن على يقين أن الإنسان الأسود إذا ما فتش في حياته سيجد أن الرجل الأبيض تصرف معه فعلاً تصرفاً شيطانياً. وأول مَنْ يفعل ذلك السجين الذي وضعه الرجل الأبيض داخل القضبان والذي

يأتي في العادة من قاع المجتمع الزنجي من تلك الطبقة التي سمح بها الرجل الأبيض.

ويواصل مالكوم إكس حديثه قائلاً:

اجعل الزنجي يفكر كما فكرت أنا عندما سمعت بتعاليم السيد إلايجا في أنه كان سيصبح محامياً أو طبيباً أو عالماً أو أي شيء من هذا القبيل لو كان قد أعطى الفرصة، دعه يفكر وسيرى كما رأيت وسيرى أن ملايين السود في أمريكا عوملوا من أول يوم معاملة خرفان في جحر ذئاب وأن عبارة "الرجل الأبيض شيطان" تعكس واقعاً عاشوه ولمسوه.

ويواصل مالكوم إكس رواية مذكراته قائلاً:

سبق لي أن قلت إنه كان يُعقد في سجن نورفولك مناظرات أسبوعية. وكان فكري يفور بما قرأت ورغبتي في أن أقول للرجل الأبيض حقيقته، فذهبت وسجلت نفسي في قائمة المشاركين في المناظرة.

ولم يكن ليخطر لي على بال في حياتي الماضية أن يأتي يوم أجد فيه نفسي واقفاً لأخاطب الجماهير. لم أكن وأنا أتجول ببضاعتي في الأسواق أو وأنا أبيع المخدرات وأسرق البيوت لأتصور حتى ولو كنت تحت تأثير رطل كامل من الحشيش أنه سيأتي يوم أجدني فيه واقفاً على منابر في أكبر الميادين

الرياضية وأشهر الجامعات وليس في الولايات المتحدة وحسب ولكن في مصر وإفريقيا وانجلترا.

بدأ ذلك بمشاركتي في مناظرة سجن نورفولك التي أمدتني بمتعة لا تعدلها إلا متعة القراءة فواصلتها. كان نوادر الأفكار في ذهني وحرياتها على لساني يثيرني فكنت أستغرق في النقاش حتى أغرق فيه وكان يمتد بيني وبين الجمهور حبل متين حتى إذا ما نجحت في إقناع المتناظرين بوجهة نظري دل ذلك على أنني تفوقت في معالجة الموضوع. كنت وأضع نفسي مكان الخصم لأعرف إستراتيجيته وأستعد لها وكنت كلما وجدت فرصة لزرع فكرة الطبيعة الشيطانية للرجل الأبيض استعملتها. وجاءتني أول فرصة ونحن نناقش موضوع: "هل يجب أن يكون التدريب العسكري إجبارياً"؟. كان خصمي قد قال إن الإثيوبيين رموا الطائرات الإيطالية بالحجارة والرماح فقلت له إنهم فعلوا ذلك لأنهم كانوا يحاربون الشيطان وأنهم كانوا سيرمونها بأجسادهم المجردة لو دعا الأمر فاستنكر الجمع ذلك لأنه يزج بالعنصرية في الموضوع.

وفي نفس الليلة كتبت للسيد إلايجا رسالة دافعت فيها عن أخي المتهم بالكفر والتمست له العفو وشرحت مكانته عندي ثم وضعت الرسالة في صندوق الرقيب وأمضيت الليلة في الصلاة. صليت بحرارة وسألت الله أن يبدد شكي ويبدله باليقين.

ولم يحدث شيء تلك الليلة ولكن الليلة التالية وأنا ممدد على الفراش جاء رجل وجلس على الكرسي بالقرب مني. وكان يرتدي بدلة سوداء. أذكره جيداً. ولم أشعر بأية رهبة ولكنني لم أستطيع أن أتحرك وكنت أعرف أنني لا أحلم فنظرت في وجهي في صمت ولم أستطع أن أتبين جنسه ولكني عرفت أنه غير أوروبي. لم يكن بالأسود ولا بالأبيض. كان أسمر، خفيف السمرة، آسيوي اللمحات بشعر فاحم دهني، ولبث ملياً دون أن ينبس ثم اختفى فجأة كما ظهر.

وجاءني جواب السيد محمد يقول: "إذا كان الشك قد تسرب إلى قلبك فمعنى ذلك أنك لم تؤمن أبداً والسبب هو نفسك الضعيفة" فأثر في قوله، وكنت أعرف أن ريجينالد لم يكن مسلماً ملتزماً وأن السيد إلايجا على حق وأخي على باطل لأن الحق بين والباطل بين ولم يخطر ببالي أن يأتي يوم أرى فيه أبناء السيد إلايجا يرمون أباهم بالتهمة التي رمى بها ريجينالد وآخرين.

وعندما وصلتني رسالة السيد إلايجا كان شكي وحيرتي قد تبدد ومعهما كل ما كان لأخي عليّ من تأثير حتى أصبح كل ما يقوله ويفعله خطأ في نظري ولكنه بقي يزورني فبقيت أستمع إليه، ببرود، ألم يكن شقيقي؟. كان قد ودع أناقته وأصبح يرتدي القمصان القطنية والسراويل وأحذية التنس. ثم حل به العقاب

تدريجياً أو ما يسمونه المسيحيون بـ "اللعنة". هذا ما قاله الإيجا محمد وقال أيضاً إن الله سيعاقب كل مَنْ يتحدى أو يتمرد على دينه ورسوله (الإيجا) ما بقى الرسول نفسه على المحجة البيضاء. وكان قد قال لنا أن الإنسان عندما يسلم يخرج من الظلمات إلى النور فإذا ارتد عاد إلى الظلمات وحق عليه العقاب. وكان السيد محمد يقول إن النجمة الخماسية تركز إلى العدل والحواس الخمس وإن الله يعاقب بتعطيل إحداها فأيقنت أن ذلك ما يحدث لأخي.

وبعث لي فيلبرت رسالة قال فيها إن ريجينالد يوجد عندهم في دتروين ثم لم أعد أسمع عنه شيئاً حتى زارتني (إيلا) ذات يوم وقالت أنه عندها وأنها تركته نائما في بيتها وأنه جاءها في حالة مزرية وأنها سألته: "أين كنت"؟ فقال: "في دترويت" وأنها سألته: "وكيف ذهب إليها؟ فقال: "مشياً على الأقدام".

وصدقت أن يكون قد فعل ذلك لأن السيد (الإيجا محمد) كان قد أقنعنا أن الله يعاقب ريجينالد ويسلبه إدراك الزمن والمسافة وأن هناك بعداً زمنياً لا يدرك هنا في الغرب وأن هناك أشخاصاً لهم قوة فكرية عالية يستطيعون بها أن يشيبوا الشعر في خمس دقائق وأنها تستعمل في تنفيذ عقاب الله بتعطيل إحدى حواس المذنب حتى إنه قد يمشي تسعة مائة

ميل ويعتقد أنه شوط من شارع. وكنت قد أطلقت لحيتي بعدما أسلمت فقال ريجينالد عندما زارني إن كل شعرة فيها ثعبان وكان قد بدا يرى الثعابين في كل مكان. وبعد ذلك بدأ يعتقد أنه رسول الله وقالت لي (إيلا) التي جاءتني بهذا الخبر إنه يمشي في شوارع روكسبوري ويقول للناس إنه يملك مواهب ربانية ثم بدأ يقول إنه (الله) وبعد ذلك أنه أكبر من الله فأخذوه إلى مستشفى الأمراض العقلية ثم تركوه يخرج.

ويواصل مالكوم إكس حديثه قائلاً:

وأنا اليوم لا أجد لما حدث لريجينالد إلا تفسيراً واحداً وهو أن انتشل أنا نفسي من الظلمات التي كنت فيها؟.. وخاصة وبعدما رمى (الايجا) بالفاحشة بدأت أفكر أن ما حدث لريجينالد لم يكن عقاباً من الله وإنما رد فعل سببه إنكار أسرته له ومناصرتها (لإيلايجا) عليه مما أدى به التمرد الشديد على (الايجا) ومن ثم إلى الخلل العقلي.

أعتقد أنه من غير الممكن أن يرى الإنسان في حلم أو حتى في رؤيا شخصاً لم يسبق له أن رآه كما هو في الحقيقة وإذا حدث ذلك فإنه يكون من قبيل التمهيد للتجلي. ذلك أن الطيف الذي زارني في الزنزانة كان للسيد (فارد) الذي يقول (الايجا) إنه اختاره ليكون خاتم المرسلين إلى السود في أمريكا الشمالية.

ورجعت إلى سجن شارلزتاون ولم يبق من مدة سجني إلا سنة. كان أمر دعوتي للإسلام في السجن قد علم به السجناء البيض بعدما لم يعرف بعض أنذال السود كيف يسكتون ألسنتهم كما كانت التقارير قد ذهبت إلى السلطات المختصة في شأن رسائلي فلفقت لي تهمة الامتناع عن التداوي بحقنة ما ونقلت إلى سجن شارلزتاون.

وأقلقني ذلك لأنه جاء وملفي على وشك أن يعرض على لجنة العفو ولكنني عدت فقلت إنهم قد ينظرون إلى الموضوع من وجهة نظر أخرى ويطلقون سراحي حتى لا أبقى أدعو للإسلام في السجن.

كان نظري سليماً مائة في المائة ولكنه ضعف من كثرة القراءة على ضوء مصباح السجن فلبست النظارة الطبية لأول مرة في سجن شارلزتاون. وكان مجال التحرك في السجن محدوداً ولكنني علمت أن هناك درساً يعطي في الإنجيل فتسجلت فيه. وكان الأستاذ طالباً في هارفارد وكان طويل القامة أشقر بعيون زرق أي أنه كان صورة طبق الأصل للشيطان. وأنهى عرضه وفتح باب المناقشة. ولا أعرف أي منا كان قد قرأ الإنجيل أكثر من الثاني ولكنني أعترف أنه كان متضلعاً في دينه.

وناورت لأخرجه عن اتزانه وأعطي الزنوج شيئاً يتسلون ويتناقلونه فرفعت يدي وأشار لي برأسه. كان قد تكلم عن (بولس)

النبي فوقفت وقلت: "وما لون بولس"؟ ولم أنتظر بل واصلت كلامي وأنا أتوقف بين الفينة والأخرى: "لا يمكن أن يكون إلا أسود ... لأنه يهودي .. ولأن اليهود الأوائل سود ... أليس كذلك"؟.

وأحمر وجهه على الفور بطريقة البيض وقال: "نعم" ولكنني لم أكن لأتركه عند ذلك الحد فقلت: "والمسيح"؟ لقد كان يهودياً أيضاً أليس كذلك"؟ فاعتدل السجناء البيض والسود في جلستهم.

ومهما كانت قسوة السجين وسواء كان مسيحياً أسود مغسول الدماغ أو شيطاناً مسيحياً أبيض فإنه غير مستعد لسماع أن المسيح لم يكن أبيض وأخذ الأستاذ يهرع من القاعة. لم يكن عليه أن يشعر بالذنب ذلك أنني لم أصادف فيما بعد رجلاً على قدر من الذكاء يستطيع أن يعاند ويقول إن المسيح أبيض ورد الأستاذ على سؤالي قائلاً: "المسيح أسمر" فتركته ينفذ بذلك الحل الوسط.

وانتشر الخبر في سجن شارلزتاون كما توقعت حتى بدأت أرى رؤوساً تهتز لي. وبدأت كلما وجدت الفرصة لمخاطبة أخ أسود في وجهه أقول له: "هل سمعت أيها الأخ برجل يدعي السيد الإيجا محمد"؟

اذكر أيضاً نقاشاً جرى حول هوية شكسبير وهو إن لم تكن له علاقة باللون إلا أن الغموض الذي يكتنف شخصية شكسبير جعلني أشارك فيه.

إن ترجمة الملك جايمس للإنجيل من أعظم ما كتب باللغة الإنجليزية بقلم الملك جايمس، كما يشاع، الذي ما هو إلا قلم شكسبير. وإذا كان الملك جايمس كما ثبت تاريخياً قد كلف الشعراء فيما بين عامي 1604 و 1611 بكتابة الإنجيل باللغة الإنجليزية وكان شكسبير موجوداً فلما لم يستعن به وهو في قمة كتابة الشعر؟ وإذ كان قد استعان به فلما لم يرد ذكر ذلك في المصادر؟

أعرف أن هناك مَنْ يقول أن شكسبير هو فرانسيس وإذا كان هذا أيضاً صحيحاً فلما لم يشارك في ترجمة إنجيل الملك جايمس؟ إنه لا يمت للأسرة الملكية بصلة ولا يمكن بالتالي أن يحط من قدره اشتغاله بالفن والمسرح بل إن من شأن ذلك على العكس أن يرفع شأنه فلماذا إذن يكتب روائع أدبية ويوقعها باسم مستعار وهو من عامة الناس؟

في ذلك النقاش دافعت عن احتمال أن يكون شكسبير هو الملك جايمس وأنه كان أذكى وأفضل مَنْ جلس على عرش بريطانيا وأنه لم يكن هناك بين أعضاء الأسرة الملكية مَنْ يقدر على كتابة الروائع المنسوبة إلى شكسبير. ولذلك أيضاً قلت أنه هو الذي كتب الإنجيل كتابة شعرية وساهم به في استعباد العالم.

كنت اقرأ وأجمع الحجج المطابقة لتعاليم الإسلام وأطلع أخي ريجينالد عليها كلما زارني. وكنت قد قرأت في الجزء الثالث

والأربعين أو الرابع والأربعين من الكلاسيكيات التي تنشرها (هارفارد) "الفردوس المفقودة" لميلتون الذي يقول فيه إن الشيطان قام بعدما طرد الله آدم من الجنة بدأ يحاول الاستيلاء على الأرض فعمد إلى استعمال سلطة أوروبا المتمثلة في البابا (وشارل) ورتشارد قلب الأسد وفرسان آخرين فاستنتجت من ذلك أن الشيطان تجسد في هذه الشخصيات وخلصت إلى المطابقة بين ذلك وبين نظرية السيد إلايجا القائلة أن الإنسان الأبيض شيطان.

لذلك صعقني أن أجد ريجينالد مستاء من السيد (إلايجا)، لم يفصح لي عن ذلك مباشرة وإنما استشففته من كلامه ونبرة صوته وتعبير وجهه وهو يتحدث عنه فصعقت ولم أصدق أن يأتي ذلك بعدما غير الإسلام بواسطة (السيد إلايجا) مجرى حياتي وأصبح كل شيء فيها ومَمّن؟ من أخي ريجينالد الذي أدخلني أمة الإسلام والذي كنت أثق فيه واحترمه. وقال ريجينالد إن السيد إلايجا أخرجه من أمة الإسلام لأنه خالف أوامره وأخل بالخلق الإسلامي.

الفصل الرابع

المنقــــذ

يقول مالكوم اكس عن الأحداث التي وقعت له خلال عام 1952:

في ربيع 1952 كتبت لإلايجا محمد ولأسرتي أزف إليهم التصويت من لجنة العفو على الإفراج عني ولكن إجراءات ضمان أخي الأكبر (ويلفريد) تأخرت فبقيت في السجن بضعة أشهر. وكان ويلفريد قد حصل على تعهد من اليهودي الذي يعمل عنده في متجر لبيع المفروشات بتشغيلي فور خروجي من السجن.

وسمعت أن العفو قد شمل شورتي أيضاً وأنه لم يجد من يضمنه. فيما بعد علمت أن درس التأليف الموسيقي في السجن وألف بضعة قطع سمى إحداها: "كونسرتو الباستيل.

وخرجت من السجن فذهبت إلى "دترويت" وليس إلى (هارليم) أو (بوسطن) نزولاً عن رغبة أسرتي وخاصة (هيلدا) التي كانت تشعر أنني في حاجة إلى أن أعمق معرفتي بتعاليم السيد إلايجا محمد وأصبح عضواً في مسجد دترويت.

خرجت في شهر أغسطس. ألقوا عليَّ محاضرة وأعطوني

بذلة رخيصة ومبلغاً يسيراً من المال ثم فتحوا لي باب السجن فخرجت ولم أنظر إلى الوراء شأن الآلاف غيري ومن هناك توجهت رأساً إلى الحمام التركي ثم قضيت الليلة في بيت (إيلا). وحبذت هذه الأخيرة فكرة ذهابي إلى دترويت لأنه ليس لي فيها سوابق. وهكذا عللت ذهابي إليها إذا لم تكن جماعة المسلمين تعينها في شيء. قالت لي إن لهم أن يعتنقوا ما يشاؤون وأنها فيما يخصها لن تعتنق أي إسلام. وأعطتني بعض المال فذهبت واشتريت ثلاثة أشياء ما زلت أذكرها: نظارة طبية أجمل من التي أعطانيها في السجن وحقيبة وساعة معصم. وتبين لي فيما بعد أنني كنت استعد لحياتي التالية وأنا لا أدري. ذلك أن تلك الأشياء أصبحت حيوية في حياتي: النظارة عوضت ما ذهب من نظري في السجن والحقيبة استعملتها في أسفاري التي جعلت زوجتي تبقى في البيت حقيبة جاهزة على الدوام لا يكون عليَّ عند الحاجة إلا أن التقطها وأنطلق والساعة تجسد ما أضحى للوقت عندي من أهمية بعدما بدأت أعيش على الزمن وضبط المواعيد حتى أنني لا أنظر الساعة وأنا أسوق ولكن إلى عداد السرعة لأن الزمن أصبح عندي أهم من المسافة.

في دترويت ركبت الأوتوبيس إلى الحي الزنجي حيث يوجد المتجر الذي يعمل فيه (وبلفريد) هناك قدمني لأصحابه

فشغلوني بائعاً حسب الاتفاق.

كان ذلك المتجر، يجذب الزنوج بإعلانه الذي يقول: "اشتر الآن وادفع فيما بعد" كانوا يؤدون في بضائعه أضعاف أضعاف سعرها لمجرد أن الدفع بالتقسيط مع أنها حثالة من نوع ما يباع في الأحياء الزنجية. كان هناك أغطية أسرة وزرابي تحاكي جلد النمر وأشياء من هذا النوع. وكنت أرى أيدي تخشبت من العمل وكنت أوقع بخطوط مخلخلة على عقود مطبوعة طباعة متطورة تتعهد بمقتضاها بدفع فوائد عالية.

وفي ذلك المتجر عشت النكتة التي حكاها السناتور باري غولد ووتر لمجلة جيت أثناء الحملة الرئاسية عام 1964 والتي مفادها أن رجلاً أبيض وزنجياً ويهودياً سئلوا أن يتمنوا شيئاً فطلب الرجل الأبيض الأمن وطلب الزنجي المال وطلب اليهودي حلياً مزورة وعنوان الولد الزنجي.

في ذلك المتجر رأيت بعيني استغلال السود. رأيتهم يلقون بأنفسهم في أخطبوط اقتصاد الرجل الأبيض الذي يعود إلى بيته في نهاية النهار بكيس ممتلئ بمال الحي الزنجي الذي استنزفه. رأيت مال الزنوج الذي كان ينبغي أن يصرف فيما ينفعهم يذهب إلى جيوب تجار بيض يسكنون مناطق محرم على السود أن يضعوا أقدامهم فيها.

ودعاني (وبلفريد) للإقامة في بيته وقبلت دعوته ممنوناً وأثر في وجودي في بيت وأسرة وكان لي بلسماً بعد كل تلك السنوات التي قضيتها وراء القضبان. وكان جو ذلك البيت المسلم بالخصوص يحثني على الاتجاه إلى الله بالتسبيح والحمد. ومع أن إخوتي كانوا وصفوا لي تقاليد البيت المسلم في رسائلهم إلا أنني وجدت الحقيقة أكبر من الوصف. وكان أخي (وبلفريد) يشرح لي كل صغيرة وكبيرة بلطف وأناة. ولم يكن هناك شيء من البلبلة التي تعم البيوت في الصباح عادة. يستيقظ رب الأسرة وحاميها وعائلها أولاً كما قال أخي (وبلفريد). ويتوضأ ثم يستيقظ الأولاد حيث يسود النظام في استعمال الحمام. ونحن المسلمون نقول باسم الله بصوت عال ونتوضأ فنغسل اليدين، اليمني فاليسري ونتمضمض ونستنشق ونستقر ونغسل بالمرشة ثم نصلي.

وجدت أعضاء الأسرة حتى الأطفال فيما بينهم يهمسون في الصباح: "السلام عليكم" فيقال لهم: "وعليكم السلام". وجاء (وبلفريد) ذلك الصباح بسجادة بسطها على الأرض وقعدنا نكبر سراً في انتظار مَنْ يتوضأون. في ذلك الوقت كانت الشمس قد أشرقت إذ لا يجوز للمسلم أن يصلي في الأفق لأنه لا يجب أن يتوسم من ذلك أنه يسجد لها وإذا كان

يستقبل المشرق في صلاته فذلك ليكون في وحدة مع إخوته المسلمين البالغ عددهم أكثر من 725 مليون نسمة في العالم. وجاءت زوجة ويلفريد وبناته في قمصان طويلة وخمر يغطين بها رؤوسهن فخلعن شباشبهن ووقفن خلفنا على السجادة في اتجاه المشرق.

هناك دعاء كنت أردده باللغة العربية مع أسرتي وكنت قد تعلمته بالإنجليزية أولاً وهو: "اللهم إني إياك أعبد. اللهم لك الحمد يا علي يا قدير يا ذا الجلال. تبارك اسمك وعظم جلالك. اللهم إني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك".

كان الفطور عصيراً وقهوة فشربناهما وخرجنا إلى العمل وهناك كنا ننسحب في هدوء وكلما جاء موعد الصلاة فنتوضأ ونصلي. وكان الأطفال يفعلون نفس الشيء في المدارس والأمهات في البيوت شأنهم شأن إخوانهم المسلمين في كل مكان.

وكان مسلمو دترويت يلتقون في المسجد أيام الأربعاء والجمعة والأحد وكان المسجد في متجر سابق يقع في 1470 شارع فريدريك على ما أظن وكان بالقرب منه ثلاثة مجازر يذبح فيها الخنزير فكان صياحه يصل إلينا أيام الأربعاء والجمعة. كان ذلك في مطلع الخمسينات. أما المسجد الذي أنشأه فارد في دترويت عام 1931 فيقع في مكان آخر.

أذهلتني أخلاق المسلمين التي لم أكن قد رأيت لها مثيلاً بين الزنوج. وكان زي الرجال بسيطاً في أناقة وكانت النساء يرتدين ثياباً طويلة ويغطين رؤوسهن بالخمر ولا يضعن أية زينة على وجوههن وكان الأطفال مهذبين ليس مع الكبار وحسب بل ومع غيرهم من الأطفال أيضاً. كنت لأول مرة في حياتي أرى سوداً يعتزون بلونهم ويحملون الحب في قلوبهم محل الحسد والريبة. وهزتني طريقة السلام عند الرجال حيث يأخذ الرجل يد أخيه بين يديه والبسمة على شفتيه ولسانه يلهج بعبارات الفرحة باللقاء. رأيت الرجال يكرمون النساء ويحترمونهم كما لم أرى أي رجل أسود يفعل في حياتي وسري إليَّ من كل ذلك شعور بالجمال. كانوا يخاطبون بعضهم البعض بعبارات تنم عن الود والاحترام والكرامة: "أخي ... أختي ... سيدي ... سيدتي" حتى الأطفال كانوا يفعلون ذلك. شيء رائع!

وفي أول اجتماع لي بالمسجد دخل الإمام السيد حسن لوميال يقول: السلام عليكم" فرددنا تحيته ووقف إلى جانب سبورة سوداء مرسوم على أعلى أحد طرفيها العلم الأمريكي وتحته: "عبودية، ألم، موت" فعلامة الصليب وبجانبها: "المسيحية، وتحتها صورة رجل أسود مشنوق يتدلى من فرع شجرة. وفي أعلى الجهة الأخرى إلى السبورة على خلفية حمراء صورة

النجمة والهلال وتحتهما: (إسلام - حرية - عدالة، مساواة)، وتحتها: "من سيخرج ظافراً من الصراع بين الخير والشر"؟

وشرح الإمام خلال ما ينيف على الساعة تعاليم السيد إلايجا محمد وهو يكتب العبارات الجوهرية على السبورة وأنا استوعب جميع كلماته وحركاته. وأغضبني أن يكون هناك مقاعد شاغرة في وقت تمتلئ فيه الشوارع المجاورة بسود منهمكين في الشتم والشجار والرقص ومعاقرة الخمور والإغراق في المخدرات والملذات وكان في كل ما يقول عنه السيد محمد إلايجا أنه بقينا تحت سطوة الرجل الأبيض في أمريكا. حقيقة واتضح لي أن المسجد يتوكل على الله ليأتيه بالمزيد من المسلمين ولكنني رأيت أن نعقلها ونتوكل خاصة وأنني أعرف سكان الأحياء الزنجية من كثرة ما عشت بينهم. قلت لوبلفريد إن علينا أن نخرج فوراً إلى الشارع لكسب المزيد من المسلمين ولكنه نصحني بالتأني.

وساعدني على أتباع نصيحة أنني كنت منصرفاً بكل تفكيري إلى ترقب لقاء الرجل الذي يلقب بـ "رسول الله". لقد قابلت فيما بعد شخصيات ذات شهرة عالمية من بينها رؤساء دول ولكنني لم أترقب لقاء أي منهم بمثل اللهفة التي كنت أترقب بها لقاء السيد إيجا محمد والذي تم أخيراً في يوم الأحد السابق

لعيد الشغل من عام 1952 فذهبت في قافلة من حوالي عشر سيارات إلى شيكاغو.

وشعرت وأنا في الطريق بفرحة لم أشعر بها منذ الطفولة. لقد شهدت تجمعات إسلامية ضخمة وسمعت هديرها ولكنها لم تؤثر في تأثير لقاء الجماعتين المسلمتين ذلك اليوم في مسجد شيكاغو وسط التهليل والترحيب. وكان لظهور (محمد الايجا) عليّ نفس الأثر. دخل من باب خلفي واتجه نحو المنصة وهو يحث الخطى، يحيط به حراس ثمرة الإسلام الممشوقين الذين يمشون بخطى شبه عسكرية. وبدا نحيلاً بينهم وضئيلاً بوجهه الدقيق، الرقيق، الأسمر الذي حفظته لكثرت ما حدقت في صوره، وأنا في السجن كنت أراه في المنام. كان يلبس بدلة داكنة مثل جراسه وقميصاً أبيض ورابطة سهرة ويضع على رأسه خلافاً لهم طربوشاً أخضر مطرزاً بخيوط مذهبة.

وحملقت فيه، في الرجل الذي حمل نفسه عبء الرد على رسائل سجين لا يعرف عنه شيئاً، الرجل الذي عاني الويلات من أجلنا. وبدأ يتكلم فملت إلى الأمام وأنصت بكل حواسي. وسأختصر ما قاله والذي أذكره لأنني سمعت المئات من خطبه: "منذ إحدى وعشرين سنة وأنا أعمل بلا هوادة لنشر الإسلام بين السود في أمريكا متحملاً في سبيل ذلك محنة السجن

مرتين حيث حكم عليَّ في الأولى بثلاث سنوات ونصف قضيتها في السجن الفدرالي وفي الثانية بسنة قضيتها في سجن هذه المدينة متحملا فراق أسرتي مدة سبع سنوات كنت أختفي فيها اتقاء لشر المنافقين، أعداء هذا الدين الذي سيمنحنا الحياة ويسوينا بالأمم الحرة والمتمدنة وبكل شعوب المعمورة".

وتكلم عن عملية غسل الدماغ التي تعرض لها ما يدعي بالزنجي في براري أمريكا الشمالية على يد الشيطان، أزرق العينين، تلك العملية التي تجعل الزنجي اليوم مغرقاً في الموت الفكري والروحي والمعنوي. وقال إن الإنسان الأول على الأرض كان أسود وتكلم عن عملية الاختطاف التي تعرض لها السود والتي تلاها تجريدهم من كل مقومات هويتهم: اللغة والثقافة والبنية العائلية والاسم العائلي. وقال إنه سيعلمنا كيف نعرف أنفسنا حتى نصعد من قاع المجتمع الأبيض ونصبح كما كنا في أعلى عليين.

وتوقف ليلتقط أنفاسه ثم ناداني فسري في جسدي ما يشبه التيار الكهربائي وأمرني بالوقوف دون أن ينظر إليَّ، فوقفت وبدأ يتكلم عني. قال إنني خرجت من السجن منذ عهد قريب وأنني برهنت وأنا فيه عن قوة إرادة ورباطة جأش وأنني كنت أراسله يوميا فكان يرد على رسائلي قدر الإمكان ثم حكى لنا وأنا واقف

والأنظار متجهة إليَّ حكاية تنطبق عليَّ، قال: إن الله سبحانه وتعالى باهى بوفاء أيوب فقال له الشيطان إن سياج العصمة هو ما يحمل أيوب على الوفاء وأن أزال هذا السياج سأحمل أيوب على سبك في وجهك". واستمر الإيجا محمد قائلاً: "كذلك سيقول الشيطان إن سياج السجن هو ما جعل الأخ (ملكوم) يلجأ إلى الإسلام وأنه وقد أصبح حراً سيعود إلى خمره وتدخينه ومخدراته وإجرامه. لقد زال السياج يا أخ (ملكوم) فننظر ماذا تصنع. على أنني واثق أنه لن يكون إلا كل خير".

ولقد أمدني الله سبحانه وتعالى بعونه فبقيت مخلصاً للإسلام، مستميتاً به رغم المحن والامتحانات. حتى عندما ساءت العلاقة بيني وبين (الإيجا محمد) قلت له والأزمة على أشدها إنني رغم كل شيء ما أزال أثق فيه أكثر مما يثق هو في نفسه. ولقد ساءت العلاقة بينا بفعل الحاسدين. ومرة أخرى أقولها، كان الرجل الوحيد على وجه البسيطة الذي وضعت فيه كل ثقتي.

سبق لي أن قلت أن السيد الإيجا محمد وعد أخي ويلفريد بالنزول ضيفاً عليه عندما يزور مسجد دترويت ولكن الذي وقع هو العكس حيث دعانا في تلك الزيارة أنا وأخي فيلبرت وأسرته وحسن لوميل إمام مسجد دترويت لتناول العشاء في بيته الجديد فلبينا دعوته. وقال لنا إن أولاده وأتباعه هم الذين

ضغطوا عليه لينتقل إلى بيت أفضل وأوسع فاشترى بنايه من اثنى عشرة غرفة في 4847 شارع وودلون ، شيكاغو ورحل إليها منذ أيام. وأرانا المكان.

كنا نطمع في أن يزيدنا من درره ولكنه طلب منا نحن أن نتكلم. وكان يشغل بالي بصفة خاصة توكل مسجد دترويت على الله في إتيانه بالمسلمين وبصفة خاصة ملايين السود في أرجاء أمريكا الذين لم تصلهم هذه التعاليم فكلمته عن ذلك بصراحتي المعهودة ثم طلبت رأيه في عدد المسلمين الذين يجب أن يكون في مسجدنا في دترويت فقال: "الآلاف وقلت: "طيب سيدي" وما هي في رأيك أنجع السبل لذلك قال الصبر" فعقدت العزم على أن أعمل بنصيحته.

وكنت قد كتبت إلى شيكاغو لطلب بطاقة عضوية في أمة الإسلام فجاءتني وعليها حرف "إكس" الذي يرمز إلى اسمنا العائلي المجهول الذي عوضه أحد الشياطين البيض باسمه "ليتل" اسم الاسترقاق المفروض على جدنا الأبعد. وهكذا أصبحت من ذلك اليوم لا أعرف بين أمة الإسلام إلا (بملكوم إكس) بعد ما قال لنا السيد إلايجا أن هذا هو اسمنا الذي سنحيا ونموت به.

وفي الحي الزنجي بدأت عملية الاستقطاب في البارات وقاعات

البيار والمنعطفات فوجدت إخوتي الجهلاء السود المساكين في حال من الصمم والعمى الفكري والمعنوي والروحي يصعب تداركه وأغضبني ألا يدركوا نعمة هذا الدين الذي يستطيع أن يرد لهم الروح. كنت أكاد أستجديهم ليحضروا اجتماعنا القادم في المسجد فكان بعضهم يعدني ثم يخلف بوعده.

وزاد عددنا مع الأيام وبدأت قافلة سياراتنا الشهرية إلى شيكاغو تكبر ولكن أكثر من كانوا يرافقوننا لم يكونوا يطلبون بطاقة العضوية رغم رؤيتهم للسيد الإيجا. وبعد جهد جهيد تضاعف عددنا ثلاث مرات وراق ذلك للسيد محمد فقرر أن يشرفنا بزيارة خاصة. وفي تلك الزيارة أبي بعدما أخبره الإمام بنضالي في صفوف الدعوة إلا أن يشكرني شخصياً.

وبقيت قافلتنا إلى شيكاغو تكبر حتى بلغ عددها خمسة وعشرين سيارة. وكان السيد الإيجا محمد يدعونا في مرة للعشاء في بيته فكنت أستشف من كلامه اهتمامه بطاقتي وكنت حينذاك أحبه حب عبادة. وكنت قد تركت منذ مستهل عام 1953 متجر المفروشات واشتغلت بأجر أفضل قليلاً في شركة لصنع شاحنات نقل الأزبال حيث كنت أنظف هياكل الشاحنات بعد إكمالها.

وفي ذلك اليوم ونحن على مائدة العشاء قال السيد الإيجا إنه في حاجة ماسة إلى شباب كادح يساعد أئمته وكان يقصد أن

علينا أن نوسع الدعوة ونفتح المساجد في المدن الأخرى. ولم يكن يخطر لي على بال أن أكون إماماً لأنني لم أكن مقتنعاً بصلاحيتي لتمثيل السيد محمد. ولو أن أحداً طلب مني ذلك لأستغربت وقلت إنني سعيد بخدمة السيد محمد وأنا في أدنى موقع.

وذات يوم طلب مني إمام مسجدنا أن أعد خطبة ألقيها على الإخوان. ولا أعرف إن كان قد فعل ذلك من تلقاء نفسه أو أن السيد محمد هو الذي اقترحه عليه. المهم أنه أرادني أن أتكلم عن تأثير تعليمات السيد محمد في فأعددت خطبة قلت فيها: "إنني لو حدثتكم عن حياتي قبل أن أسلم لما صدقتموني ولذلك فأنا عندما أتكلم عن الإنسان الأسود لا أتكلم عن شيء أجهله".

وبعدها طلب مني رجل الدين أن أرتجل خطبة فترددت ثم قبلت متشجعاً بتجربتي في مناظرات السجن فوقفت أمام الإخوان وبدأت أتكلم. ومع أنني لا أذكر ما قلته بالتفصيل إلا أنني كما سبق القول كنت في ذلك الوقت أركز على المسيحية وأهوال الرق لأنه موضوع كنت أشعر أنني أتملكه لكثرة ما قرأت عنه في السجن قلت: "إخواتي، أخواتي، لقد علمتنا المسيحية نحن السود هنا في براري أمريكا الشمالية أننا عندما نموت سينبت لنا أجنحة نطير بها إلى الملكوت الأعلى حيث يدخل الله فسيح جناته. هذا ما تقوله لنا المسيحية، ديانة الرجل

الأبيض وقد رضينا بذلك! رضينا به واعتنقناه وآمنا وطبقناه! وفي الوقت الذي كنا فيه نفعل ذلك من أجل الرجل الأبيض كان يقينا تحت سطوته مستعملاً مسيحيته لإبقاء عيوننا معلقة بالثواب والجنة في الدار الآخرة بينما يتمتع هو بهما في هذه الأرض وهذه الدار".

انتابني وأنا أخطب حماس غريب لم أشعر به حتى وأنا أخاطب الملايين عبر مكروفونات الإذاعة وشاشات التليفزيون، حماس مبعثه عيون ما يتراوح بين 75 و 100 مسلم ومسلمة المشدودة إليَّ وأنا أتكلم على صراخ الخنازير المترامي من المجزرة القريبة.

ولم يحل صيف ذلك العام حتى كنت بحمد الله إماما ثانياً في مسجد دترويت. وكنت ما أزال أخرج إلى شارع الحي الزنجي لاستقطاب الشباب فانظر إلى الوجوه ذات التقاطيع الإفريقية التي غسل دماغها الشيطان الأبيض إلى حد ميئوس منه.

الفصل الخامس

الطـــرد

يتحدث مالكوم إكس في هذا الفصل عن طرده من منظمة (أمة الإسلام) التي كان يترأسها (الإيجا محمد) فيقول:

في عام 1961 تدهورت حالة السيد محمد الصحية فجأة وبدأت تصيبه نوبات كلما تكلم وتشتد عليه حتى يرتعد جسده الخرب في ألم فظيع ثم لزم الفراش.

وأبقينا الأمر سراً بيننا وبين أعضاء أسرته إلى أن علم به بعض الإخوة ثم بدأت التجمعات الكبرى المقررة منذ مدة طويلة تلغي في أخر لحظة فشعر المسلمون بالخطر وأصبحنا ملزمين بالرد على الأسئلة فانكشف الخبر وشاع في أمة الإسلام بسرعة.

كنا نقدر الخسارة التي سيسببها غياب السيد محمد الذي يجسد لنا أمة الإسلام التي جمعتنا تحت لوائها في أحسن تنظيم عرفه السود في أمريكا بدافع تقاليد في شخصه ونظرتنا إليه كمصلح خُلقي وفكري وروحي في أمريكا السوداء. أقول أمريكا

السوداء لأننا كنا نعتبر أنفسنا إذ نسير على نهج السيد محمد قدوة خُلقية وفكريا وروحية لكل السود في أمريكا الذين كانوا يتكلمون باحترام على إبعاد المسلمين من أمة الإسلام، إذا ثبت أنهم كذبوا أو قامروا أو غشوا أو دخنوا السجائر، لأن السيد محمد كان يحكم على مرتكبي الموبقات كالزنا بالعزل مدة تتراوح بين سنة وخمس سنوات وأحيانا بالطرد البات، وكان أكثر صرامة مع أعوانه، لأن ذنب الرسميين كما كان يقول ذنب مركب لأنهم يضرون بأنفسهم وبمسؤوليتهم كزعماء يقتدي بهم، وكان يضرب لنا المثل بحسن سلوكه، فكان لنا منارة هدى نشعر أننا بدونها سنتيه في الظلام. وكان الأطباء قد أشاروا عليه بالمناخ الجاف وكنا قد عثرنا في فينيكس على بيت عازف السكسوفون لويس جوردن فاشتريناه له.

كنت أخدم أمة الإسلام بجهد مضاعف وكانت تعطيني كل الامتيازات التي أريدها. وكنت قد ساهمت في تقدم أمة الإسلام وتشييد سمعتها على الصعيد الوطني، حتى لم يعد بإمكان أحد أن يهم بالكذب وكان السيد محمد هو الرجل الأسود الأكثر نفوذاً في أمريكا. وكنت قد ساعدت السيد محمد وباقي رجال الدين العاملين معه في إحداث ثورة في تفكير الأمريكيين السود وفتح أعينهم بصفة جذرية يستحيل أن

ينظروا بعدها إلى الرجل الأبيض بتبجيل ورهبة. وساهمت في نشر حقائق ساعدت الإنسان الأسود على التخلص من أسطورة الجنس الأبيض المتكون من رجال فوق العادة وفي تثبيت شيء ما في الروح السوداء.

وإذا كان لي من خيبة أمل مكتومة فهي اقتناعي بأننا كنا نستطيع أن نتحرك أكثر ونجعل أمة إسلامنا أقوى وأكمل في نطاق صراع الإنسان الأسود في أمريكا، أي أنني كنت أعتقد في سري أنه كان علينا أن نعدل أو أن نخفف سياسة عدم الالتزام التي كنا ننهجها. كنت أعتقد أنه كان على المسلمين المناضلين أن يهرعوا إلى كل مكان يظهر فيه تحرك أسود لصالح القضية، من نوع ما حدث في ليتل روكس وبرمنغهام وغيرهما، حتى يرى العالم ويسمع.

وكان قد بدأ يُقال في الأحياء الزنجية: "إن هؤلاء المسلمين لا تسمع أصواتهم إلا إذا تعلق الأمر بإخوانهم في الإسلام" وكنت على اتصال بغير المسلمين أكثر من غيري في أمة الإسلام، فشعرت أن ذلك الكلام، باعتبار المزاج الأسود المتقلب، سينتهي بنا في يوم من الأيام إلى فقدان مكانتنا في جهة الصراع الأمامية، وفيما عدا ذلك كان الله يبارك جهودي إذا كانت نيويورك المدينة التي يضرب فيها انتشار الإسلام

الرقم القياسي، وكان المسجد الصغير الذي كان السيد محمد قد بعثني إليه قد أصبح ثلاث مساجد من أقوى مساجد أمة الإسلام وأكثرها اتساعاً وهي:

1 – مسجد هارليم في منهاتن.

2 – مسجد كورونا في كوينز.

3 – مسجد في بروكلين.

وكنت قد أنشأت أو ساهمت في إنشاء أكثر مساجد أمة الإسلام المائة المنتشرة في التراب الأمريكي وعبرت أمريكا أربع مرات في الأسبوع أحياناً ونمت في الطائرات النفاثة وعشت في مداخلات ولقاءات مع الصحافة والإذاعات وشبكات التليفزيون والجماهير، ولم أكن لأفعل ذلك كله لولا الأجنحة التي كان السيد محمد قد ركبها لي.

وفي عام 1961 عندما ساءت أحوال السيد محمد الصحية بدأ يصلني ما يشاع عني وبدأت أسمع إيماءات مغلقة وأرى ما يثبت الحسد والغيرة اللذين تنبأ لي بهما السيد محمد مثل: "إن (مالكوم) يريد أن يستحوذ على أمة الإسلام" "إنه يستغل تعليمات السيد محمد لصنع مجده الخاص"، إنه يحب النجومية". ولم يغضبني ذلك بقدر ما جعلني أحرص على ألا أجعل شيئاً منه ينطبق عليَّ. كنت أري أن السيد محمد نفسه تنبأ لي بالحسد

والغيرة وأنه سيفهم إذا ما بلغه ذلك فلم أهتم به.

وكان غير المسلمين من جهة أخرى يتهمونني ببناء ثروة كبيرة، ولكن المسلمين كانوا يعرفون الحقيقة. أنا ابني ثروة كبيرة ولم يكن البوليس الفدرالي ووكالة المخابرات الأمريكية ومصلحة الضرائب مجتمعة بقادرة على إيجاد شيء في اسمي باستثناء السيارة التي أتنقل فيها والبيت الذي أسكنه والذي تحاول أمة الإسلام بكل ما يحركها من غيرة وبخل أن تخرجني منه.

نعم كنت أتصرف في المال وكان إلايجا محمد يأذن لي بأخذ ما أطلبه، ولكنه كان يعرف كأي مسؤول مسلم آخر أنني لم أكن استعمل أي فلس آخذه إلا فيما يساعد أمة الإسلام على التقدم.

وكان موقفي من المال يسبب الشجار الوحيد الذي نشب بيني وبين زوجتي المحبوبة لقد ازدادت تلميحاً إلى ضرورة توفير بعض المال، وكنت ارفض فانتهى بنا الأمر إلى الشجار أوشك أن ينتهي بنا إلى الفراق، ولكني لم أتزعزع عن موقفي. كنت أعرف أنها مستعدة لفدائي بنفسها فقلت لها إن أكثر من منظمة قد خربت لأن زعماءها حاولوا تحت تأثير زوجاتهم في أغلب الأحيان أن يستغلوها لمصلحتهم الخاصة، ثم أقنعتها بأن أمة الإسلام ستتكفل بها حتى تموت وبالبنات حتى يكبرن إذا حدث لي مكروه، وكنت أكبر مغفل إذا اعتقدت ذلك.

كنت لا أنفك أوضح في كل استجواباتي الصحفية أنني أمثل السيد محمد وأقول على رأس كل دقيقة تقريباً: "يقول السيد محمد المحترم ..." وأرفض الإجابة عن كل مَنْ يسخر من ذكري المستمر لاسمه، وأستشيط غضباً كلما قرأت أو سمعت من يسميني بالرجل الثاني في جماعة المسلمين السود واهتف لصحفيين في مدن بعيدة طالباً منهم ألا يعودوا إلى استعمال تلك العبارة أبداً موضحاً لهم أن كل المسلمين رجل ثان بعد السيد محمد".

كنت أبقى جيوبي مكتظة بصور السيد محمد لأوزعها على الصحفيين الذين يأخذون صوري، ثم أطلب رؤساءهم وأقول لهم: "أرجوك استعمل صورة السيد محمد عوضاً عن صورتي". وعندما وافق السيد محمد على أن يستقبل الصحافيين البيض لم أعد أدلي بشيء لا للصحافة السوداء ولا للصحافة البيضاء قبل أن أحثها على زيارة السيد محمد شخصياً في شيكاغو قائلاً: "خذ الحقيقة من فم السيد محمد نفسه" فكانت في الغالب تفعل ذلك.

كان البيض والزنوج حتى المسلمين منهم يحرجونني بنسب تقدم أمة الإسلام إليَّ فكنت أقول لهم: "إن الفضل لله وللسيد محمد". وأعتقد أنه لم يكن بإمكان أي رجل في أمة الإسلام أن

يصل إلى السمعة العالمية التي وصلت إليها بفضل الأجنحة التي ركبها له السيد محمد ويبقى على إخلاصه وإيثاره له كما بقيت.

وفي عام 1962 بدأت ألاحظ قلة أخباري في جريدة أمتنا "محمد يتكلم". أظن ذلك كان في يناير 1962 ثم علمت أن ابن السيد محمد هيربرت الذي يشرف على الجريدة، أصدر الأمر بعدم نشر إلا ما قل عني. وبذلك أصبحت أخبار الزعماء الاندماجيين الزنوج في الجريدة تفوق أخباري، وأصبحت اقرأ عني في الصحف الأوروبية والأسيوية والإفريقية أكثر مما أقرأه في تلك الجريدة.

ويواصل مالكوم إكس حديثه قائلاً:

أنا لا ألهث وراء الدعاية الشخصية، فلقد نلت منها ما لم تنله شخصيات دولية، ولكن ضايقني أن تخفي جريدة المسلمين أخباراً هامة تمسهم من قريب لمجرد أنها ترتبط باسمي. ودفع بي ذلك مع ما ينم عنه من غيرة وقصر نظر، إلى إيقاف تجمعات كبرى خاصة. وكنت قد خطبت في 18000 طالب في جامعة كاليفورنيا فغطت صحافة تلك الولاية ما قلته عن برنامج السيد محمد وقوته ولكنني عندما وصلت إلى شيكاغو وأنا أترقب أن أقابل بالشكر ولكن بعد التغطية قوبلت ببرودة تامة. وكررت تنظيم تجمع في هارليم حضره 7000 شخص فتكرر سلوك

قيادة شيكاغو وكانت تثنيني عن تنظيم مثل تلك التجمعات، ولكنني عمدت بعد أسبوع إلى تنظيم تجمع آخر في هارليم.

وفي الوقت الذي كنا فيه في أمس الحاجة إلى إيصال صوتنا إلى الجماهير الواسعة، رفضت طلب مقابلات شخصية تقدمت لي بها مجلة لايف ونيوزويك برنامج "قابل الصحافة" التلفزيوني الشهير، مع ما في ذلك من خسارة للإنسان الأسود عامة ولأمة الإسلام خاصة، كل ذلك بسبب موقف قيادة شيكاغو.

وعندما اغتيل مدغر إيفرز الكاتب العام للجمعية الوطنية لتقدم الملونين في ولاية سيسيبي سكت عن الحقائق التي كان يجب أن تقال. وعندما تفجرت قنبلة في كنيسة زنجية ببرمنغهام ألباما وطفئت حياة أولئك الفتيات السوداوات الجميلات الأربع، لم أتكلم الصراحة المطلوبة على جو الكراهية التي يشيعها ويغذيها الرجل الأمريكي الأبيض. لم أقل أن السماح للكراهية بالظهور حينما تكون هناك طرق لكبحها يجعلها تعبر عن نفسها بجرأة متزايدة إلى أن تصل إلى الجنس الأبيض نفسه بما فيه زعماؤه (وكان نائب رئيس الولايات المتحدة ليندن جونسون قد سب سباً دنيئاً في دلاس تكساس وكانت شرطية بيضاء قد بصقت على ألداي ستيفنس السفير الأمريكي لدى الأمم المتحدة وضربته على رأسه).

كان السيد محمد عندما عينني في عام 1963 أول رجل دين في أمة الإسلام بفلادلفيا قد قال وهو يعانقني: "هذا أخلص وأنشط رجل دين تابع لي وسيبقى مخلصاً لي حتى أخر يوم في حياته". ولم يكن قد أثنى على مسلم أخر بمثل ذلك. فاعتززت به كما لم أعتز بشيء في حياتي، ولكنها كانت آخر مرة وقفنا فيها أمام الجمهور معاً.

وكنت قبلها في برنامج جيري وليامز الإذاعي ببوسطن عندما جاءني شخص ببرقية وصلت لتوها على خط اليونايتد بريس تقول أن هناك أحد المواطنين في لويزيانا يهب 10000 دولار لمن يقتلني فقرأتها وأنا لا أدري أن خطر القتل في بوسطن كان أقرب إليَّ منه في لويزيانا. إن ما أقوله هو الحقيقة. لقد اكتشفت بذهول شديد أن هناك جهة أخرى تريد قتلي.

خلال الإثنتي عشرة عاماً التي قضيتها كرجل دين كنت صارماً في كل ما يتعلق بالأخلاق حتى اتهمني كثير من المسلمين بمعاداة المرأة. كنت أؤمن إيماناً راسخاً بأن إلايجا محمد يمثل الأسود، في كل جوانب حياته، كان رمز الإصلاح الخلقي والفكري والروحي، وكنت أركز على ذلك، وأعلن أن ما طرأ على حياتي من تغيير مثال حي في قدرة السيد محمد على إصلاح السود. لم أكن قد مسست امرأة خلال اثنتي عشرة

سنة أي منذ دخولي السجن إلى يوم زفافي، بسبب تأثير السيد محمد عليٍّ، ولكن في مشارف عام 1963 بدأت أتحاشى الكلام على الدين. كنت أدرس للمسلمين المبادئ الاجتماعية والأحداث الراهنة والسياسة لأبقى بعيداً عن الأخلاق، لأن إيماني كان قد اهتز بشكل لا يمكنني شرحه بعدما اكتشفت أن الإيجا محمد قد خدع المسلمين. لن أقول هنا إلا ما يساعد على فهم موقفي ورود فعلي سيما وأن ذلك قد أصبح معروفاً. ورغبة في الاختصار سأورد نص الخبر الذي أصدرته إحدى وكالات الأخبار كما نشرته وأذاعته وسائل الإعلام في طول البلاد وعرضها:

"لوس أنجلس 3 يوليو، يونايتد بريس إنترناشنل. جاءنا اليوم إن إلايجا محمد البالغ من العمر 67 سنة وأن دعوتين رفعتهما عليه امرأتان كانتا تعملان سكرتيرتين عنده تتهمانه فيهما بأنه أب لأولادهما الأربعة من الزنى، المرأتان اسمهما الأنسة روزاري والأنسة وليامز وكلاهما دون الثلاثين أكدتا أنهما كانتا على علاقة حميمة بإلايجا محمد من عام 1957 إلى العام الحالي 1963. وقالت الأنسة روزاري إنها حامل بطفل ثالث منه بينما أكدت المدعية الثانية أنه أب ابنتها..."

كنت قد بدأت أسمع منذ عام 1955 بعض التلميحات، ولكن

مجرد التفكير في أخذ أي شيء يتعلق بفساد السيد محمد بعين الاعتبار كان يملأني بالفزع، ولذلك رفضت بكل بساطة أن أسمع لفظ زنى مقروناً باسم السيد محمد، وهي الجريمة التي كنا نطرد من يرتكبها طرداً شنيعاً. كانت مجموعة متواترة من سكرتيرات السيد محمد قد ظهرت عليهن أعراض الحمل، وكنا قد أبقينا أمرهن سراً بيننا وشكلنا محكمة حكمت عليهن بعدما اعترفن بارتكابهن الزنى بالمقاطعة مدداً تتراوح بين سنة وخمس سنوات.

هل يمكن أن يكون هناك دليل على عمق إيماني بالسيد محمد أكبر من رفضي استعمال عقلي في اتهامه بالزنى ولجوئي بكل بساطة إلى عدم تصديقه؟ كنت أخشى أن يذهب الله بعقلي كما ذهب بعقل أخي ريجينالد إن أنا أسأت الظن بالسيد محمد. وكان آخر عهدي بريجينالد يوم رأيته قادماً إلى المسجد السابع فذهبت إليه وأوقفته وحدقت إليه النظر وأنا أقول له إنه شخص غير مرغوب فيه بين المسلمين فاستدار وذهب ولم أره بعد ذلك. فعلت ذلك مع أخي لأن السيد محمد كان قد أمر المسلمين بمقاطعته منذ سنوات، وكنت أعتبر أنني مسلم قبل أن أكون أخ رجينالد. ولم يكن بمستطاع أي كان أن يقنعني بأن السيد محمد سيخون ثقة أولئك البؤساء وتبجيلهم

الذين كانوا يعطون ملاليمهم لأمة الإسلام وهم عاجزون عن دفع إيجار مساكنهم.

وفي عام 1962 علمت أن عدداً كبيراً من المسلمين قد هجر مسجد شيكاغو الثاني وكانت الفضيحة الشنيعة قد بدأت تنتشر حتى بين الزنوج غير المسلمين، فخفت أن تصل إلى الصحافيين السود أو البيض علماً مني بأنهم بالمرصاد للنيل من أمة الإسلام، حتى بدأت أعيش في كوابيس وأرى الفضيحة في عناوين الأخبار. وكنت والحالة هذه أشعر بعبء ثقيل وأنا أواصل إلقاء خطبي في كل أرجاء البلاد. لم يكن هناك صحافي واحد يقترب مني ولا يقول: "هل ما سمعناه صحيح يا سيد ملكوم؟ وماذا كان بإمكاني أن أقول؟

لم أكن في وقت من الأوقات قد سمحت لعقلي بمعالجة الورطة بشكل طبيعي. حتى عندما بدأت أنظر فيها. وبدأ غير المسلمين في كل من نيويورك وشيكاغو يقولون لي إنهم سمعوا أو يسألونني إن كنت قد سمعت، فكنت أتظاهر بأنني أسمع الخبر لأول مرة وأرجوهم ألا يذكروه لأحد. كنت أعرف أنهم ينظرون إلي كأكبر مغفل وأشعر أنني كنت كذلك فعلاً وأنا أواصل إلقاء خطبي في الوقت الذي كنت لا أعرف فيه على ما يبدو ما يجرى أمام عيني، داخل منظمتي في شأن الرجل

الذي كنت أغدق عليه الثناء. وأيقظ ذلك في نفسي أحاسيس لم أشعر بها منذ كنت خارجاً على القانون في شوارع هارليم حيث يعتبر الخداع أدهى وصمة يصاب بها الإنسان.

وذات يوم قال لي الممثل ديك غريغوري في كواليس مسرح أبولو بهارليم متعجباً: "إن محمد مجرد .." لا أستطيع أن أذكر اللفظ الذي استعمله والذي أثار في حميتي الإسلامية وآلمني ألما لا يوصف. وأردت أن أضربه ولكنني شعرت بضعف وخواء، ولعله رأى ذلك على وجهتي فتركني كنت أعرف أن ديك وأصله من شيكاغو رزين رزانة أولاد الشوارع وفج العبارة وأردت أن أرجوه ألا يقول ما قاله لي لأحد، ولكنني لم أستطع لأنني لو فعلت لأكدت الإشاعة بطريقة غير مباشرة.

كنت فيما مضى كلما وجدتني أمام مشكل عويص أركب أول طائرة إلى السيد محمد. وكان السيد محمد قد رد إليَّ الروح وأعطاني أحسن ما أملك وجعل مني الرجل الذي أصبحته فشعرت أنه لا يمكنني أن أتخلى عنه مهما حدث. ولم يكن عندي من ألجأ إليه في مثل تلك الحالة فكان قراري أخر الأمر عليَّ أن أذهب إليه. ولكنني ذهبت بدلاً من ذلك إلى شيكاغو، وبدأت برؤية ابنه ما قبل الأخير (ولاس). كنت أشعر أنه أكثر أبنائه إيماناً وموضوعية، وكانت تجمعني به معزة وثقة

متبادلتان. ورآني فعرف على التو ما جاء بي وقال: "أعرف" وقلت أنني أعتقد أن علينا أن نكتل جهودنا لمساعدة والده، فقال إنه لا يشعر أن والده سيقبل أن يساعده أحد فقلت في نفسي إنه (ولاء) مجنون ولا شك.

وبعد ذلك خرقت القانون واتصلت بثلاث من سكرتيرات السيد محمد السابقات المحكوم عليهن بالمقاطعة وسمعت منهن مباشرة حكاية أبوة السيد محمد لأبنائهن، وإلى جانبها ما يقوله عني من أنني أعظم رجال الدين التابعين له ولكنني خطر كبير عليه لأنني سأتخلى عنه وأنقلب ضده في يوم من الأيام فآلمني يشده أنه كان يمدحني في وجهي ويمزقني في ظهري.

وبقيت استقبل وسائل الإعلام وأفي بالتزاماتي وأتعامل مع المسلمين في مسجدنا السابع ورأسي يدور من الأشكال حتى كدت أجن ثم توضحت لي الأمور. قلت إنني أخل بولائي للسيد محمد ولا أساعده وأنا قابع لا أفعل شيئاً وأن شخصاً ما عليه أن يتحرك، فكتبت ذات ليلة رسالة ذكرت له فيها ما يشاع عنه فطلبني بالتليفون وقال إنه سيناقش الموضوع معي عندما يراني.

كنت أريد أن أجد مخرجاً، معبراً تقطع عليه أمة الإسلام هذه المحنة التي تهددنا بتخريبها من الداخل، فقد كنت أؤمن لبها، ثم وجدت المعبر. فكرت أن نقول للمسلمين المخلصين

إن منجزات المرء تغطي على ضعفه البشري المرتبط بحياته الشخصية. وكنت قد راجعت بمساعدة السيد محمد كلا من القرآن والإنجيل للاستدلال بهما عند الحاجة فعدت إلى النصوص التي تظهر أن زني النبي داوود (بياتشيبا) سقط في ذاكرة التاريخ لحساب قتله (غوليات) وأن لوطاً يرتبط في أذهاننا بإنقاذه أهله من دمار سادوم وعامورة وليس بزناة ببناته، وأن الصورة التي كوناها عن نوح وهي صورة بنائه سفينته وتلقينه قومه طرق النجاة من الطوفان وليس صورة سُكره ذات مرة، وأننا عندما نفكر في موسى نراه وهو يقود اليهود من العبودية وليس وهو يزني بالحبشيات .. وهي أمثلة تغلب فيها الحسنات على السيئات. وبدأت أقول في خطبي في مسجد نيويورك السابع إن منجزات الإنسان تغلب على ضعفه وحسناته على سيئاته دون أن أشير إلى الزنى أو الانحلال الخلقي.

والغريب أن الفضيحة لم يعلم بها إلا عدد قليل من المسلمين في بوسطن ودترويت ونيويورك، بينما لم يعلم بها أحد في مساجد المدن الأخرى. وعلمت أن عدد الخارجين من مسجد شيكاغو يزداد وفي فبراير عام 1963 عندما ترأست حفل التخرج في الجامعة الإسلامية وقدمت أعضاء أسرة السيد محمد شعرت ببرودة المسلمين من الجمهور.

وفي إبريل 1963 طلبني السيد محمد من فينكس فذهبت إليه. وتعانقنا كعادتنا فأخذني إلى الحديث رأساً وبدأ يتكلم بجانب مسبحة. كان (الإيجا محمد) قد أنقذني وأنا سجين على درجة من الدناءة والخسة جعلت باقي السجناء يلقبونني بالشيطان. وكان هو مَنْ علمني وعاملني معاملة الرجل لابن صلبه وزودني بإمكانات الذهاب إلى أماكن وفعل أشياء لم أكن لأحلم بها. وتمشينا وأنا في دوامة من الانفعالات ثم قال: "ما الذي يشغل بالك يا بني؟" فرددت عليه ما يقال عنه بوضوح وصراحة ودون أن أحاول تخفيف كلامي، وقبل أن يجيبني قلت له إنني وابنه (ولاس) قد وجدنا في القرآن والإنجيل ما يمكننا به تبرير عمله للمسلمين إذا دعا الأمر وتقديمه لهم كشرط مكمل فقال: "إنك لا تدهشني يا ولدي. إنك تفهم الروحانيات فهماً كاملاً. أنت تعترف أن ما حدث علامة من علامات النبوة. إنك تملك فهم الشيوخ". وزاد قائلاً: "أنا داوود عندما أخذ داوود زوجة رجل آخر. ونوح الذي قرأت أنه سكر ذات مرة أنا، وأنا لوط الذي قرأت أنه ضاجع بناته. إنني ملزم بإنجاز كل هذه الأشياء".

وتذكرت أن الوباء يجابه بلقاح يحمل الجراثيم التي تنقله لمساعدة الجسم على مقاومتها فاخترت ستة من المسؤولين من مساجد الساحل الشرقي وأطلعتهم على ما دار بيني وبين

السيد محمد وشرحت لهم السبب الذي جعلني أفعل ذلك وهو أنني لا أريدهم أن يفاجأوا أو يصدموا إذا ما طلب منهم أن يفسروا حكاية "إكمال النبوة" في مساجدهم. كان بعضهم قد علم بالفضيحة منذ ستة أشهر مثل رجل الدين (لويس إكس) من بوسطن وكانوا كلهم يعانون في سرهم.

ولم يخطر ببالي أن المسؤولين في شيكاغو سيستعملون عملي ذاك ضدي ويتهمونني بمحاولة إطفاء النار بالبترول وليس بالماء كما كانت نيتي. لم يخطر ببالي أنهم سيجعلون عملي ذاك يبدو وكأنه محاولة لنشر الوباء لا للتلقيح ضده كما كانت نيتي. وهكذا هيأت المسرحية في شيكاغو لتحويل انتباه المسلمين إليَّ وجمع شمل من كان إيمانهم قد تضعضع على كراهيتي.

وبدأ زنوج غير مسلمين أعرفهم جيداً بل وحتى صحافيون بيض كنت على اتصال بهم يقولون لي كلما رأوني تقريباً: "إن التعب باد عليك يا ملكوم إكس. أنت في حاجة إلى الراحة".

كانت المرة الأولى منذ إسلامي التي يكلمني فيها بيض في موضوع شخصي، وكنت أشعر أن بعضهم يفعل ذلك بنية صافية. وقال لي واحد منهم لن أسميه حتى لا أتسبب في طرده من عمله: "إن البيض يا ملكوم يحتاجون إلى صوتك أكثر مما يحتاج إليه الزنوج". أذكر ذلك لأنها كانت المرة الأولى التي تكلمت فيها

منذ أسلمت مع رجل أبيض خلال مدة ما من الزمن في موضوع لا يتعلق بأمة الإسلام وصراع الأمريكيين السود الراهن.

لا أعرف كيف أو لماذا أورد ذلك الصحافي الكتابات المكتشفة في حفريات البحر الميت فقلت له:"إنها ستخرج المسيح من الزجاج الملون والرسوم الحائطية التي ظل بها ولمدة قرون بلونه الأبيض الناصع وتعيده إلى لونه الحقيقي". ودهش الصحافي وواصلت كلامي قائلاً: "إن كتابات البحر الأحمر ستثبت أن المسيح كان ينتمي إلى جماعة دينية مصرية وهي حقيقية كانت معروفة من أيام المؤرخ المصري فيلو الذي عاصر المسيح. وأخذني الحديث مع ذلك الصحافي في متاهات الحفريات والتاريخ والدين ساعتين كدت أن أنسى همومي خلالهما، واتفقنا على أن كل طفل سيتعلم في المدرسة في اللون الحقيقي لرجالات القرون الوسطى.

سبق لي أن قلت أنني كنت بين الفينة والأخرى أنتظر أن تتكلم الصحف عليّ ولكن ليس كما فعلت.

وخلال الأيام الثلاثة التي كانت الأخبار فيها لا تدور إلا عن اغتيال الرئيس (كيندي) قرر السيد محمد عدم إلقاء خطاب كان من المقرر أن يلقيه في مركز منهاتن بنيويورك ولم نتمكن من استرجاع تكاليف استئجار المركز فقد أمرني أن أخطب نيابة عنه.

لقد رجعت أكثر من مرة إلى نقط ذلك الخطاب الذي كان بعنوان "حكم الله على أمريكا البيضاء" والذي كان موضوعه أن المرء لا يحصد إلا ما زرعته يداه وهو من أحب المواضيع إليَّ. وفتح باب المناقشة فطرح عليَّ سؤال يفرض نفسه: "ما رأيك في اغتيال الرئيس كنيدي"؟ ودون أن أفكر قلت للسائل رأي بصدق. قلت له إن البيض قد نالوا جزاءهم وإن الكراهية البيضاء لا يمكن حصرها في قتل سود عزل، إنها عندما يسمح لها بالانتشار دون رادع ترد في نحر مروجيها وتضرب رئيس الدولة بذات نفسه.

وتلقفت الصحف قولي: "ملكوم إكس الناطق باسم المسلمين السود يقول إن البيض قد نالوا جزاءهم". إن استرجاع ذلك كله الآن ينهكني. كانت بعض الشخصيات البارزة في أمريكا والعالم تقول الشيء نفسه بكل الطرق وبلهجة أكثر حدة، إن الكراهية في أمريكا هي التي قتلت الرئيس.

وكان اليوم التالي هو موعد لقائي الشهري مع السيد محمد. وشعرت بالتوتر وأنا في الطائرة فأقلقني ذلك لأن حدسي لا يخيب. وعانقني السيد محمد فوجدت ترحابه بارداً، وفجأة شعرت بالتوتر من جديد وهو مؤشر له كما قلت دلالته. كنت أعتز بكوني من القرب من السيد محمد بحيث أعرف شعوره

من شعوري. إذا كان متوتراً كنت أشعر بالتوتر وإذا كنت هادئاً كنت أعرف أنه هادئ وقد كنت ذلك اليوم في غاية التوتر.

وتكلمنا على أشياء كثيرة في غرفة الاستقبال ثم سألني: "هل قرأت الصحف هذا الصباح؟" فقلت له" نعم يا سيدي قرأتها" فقال: لقد أخطأت خطأ كبيراً عندما نطقت بذلك الكلام. إن البلاد تحب ذلك الرجل. البلاد كلها تبكيه. لم يكن من الصواب أن تقول مثل ذلك الكلام في مثل هذا الوقت. إنه في غير صالح المسلمين".وواصل بصوت خيل إلىَّ أنه يأتي من مكان بعيد: "إني أراني مضطراً لإسكاتك مدة تسعين يوماً حتى أبرئ ذمة المسلمين من كلامك المتهور".

وشعرت بتنمل في جسدي ولكنني كنت من أتباع السيد محمد وكنت أقول مراراً لمساعدي: إن من يصدر الأوامر يجب أن يكون مستعداً لتطبيقها على نفسه فقلت للسيد محمد: "أنا متفق معك ومستسلم لأمرك مائة في المائة".

وفي الطائرة استعددت نفسياً لإطلاع مساعدتي على توقيفي أو "إسكاتي" ولكنني لدهشتي وجدتهم يعرفون وأكثر من ذلك كانت كل جريدة وكل محطة إذاعية وتلفزيونية في نيويورك قد توصلت ببرقية تنهي إليها الخبر فكان ذلك أسرع وأشمل عمل إعلامي رأيت المسؤولين في شيكاغو يقومون بمبادرة منهم.

وبدأت التليفونات ترن في كل مكان أتردد عليه وكان من بينها مكالمات من لندن وباريس ومن الأسوشييتد بريس واليونايتد بريس إنترناشيونال ومن كل شبكات التلفزيون والإذاعة وكل الصحف في البلاد فقلت لهم "إنني خالفت أمر السيد محمد وإنني مستسلم لحكمته وإنني أترقب رفع المنع عني بعد تسعين يوماً، فظهرت الصحف وعليها هذا العنوان: "إسكات ملكوم إكس" كان أكثر ما يقلق بالي أنني وأنا أكثر المسلمين خبرة في التعامل مع الإعلام لن أتمكن من الكلام إذا ما ظهرت فضيحة تمس أمة الإسلام وإن هذه الفضيحة إذا ما ظهرت ستستغل إلى أقصى حد.

واكتشفت بعد ذلك أنني لم أكن ممنوعاً من مخاطبة الصحافة وحسب، ولكنني كنت ممنوعاً أيضاً من إلقاء خطبتي في مسجدي. بعد ذلك أعلنوا لأمة الإسلام أنني سأرجع إلى ممارسة عملي إذا "استسلمت" فبدأ الشك يراودني كنت قد استسلمت كلية ولكنهم كانوا يوعزون للمسلمين بأنني متمرد، ولما كنت قد عشت مع الخارجين على القانون فقد كنت أستطيع أن أميز بيت الترقية والتجريد من الرتبة.

وبلغني بعد أيام أن أحد أعواني المباشرين يقول لبعض الإخوان في المسجد السابع: "لو عرفتم ما فعله لخرجتم

وقتلتموه بأنفسكم" ففهمت أن ذلك لم يكن ليقال لولا المصادقة على قتلي إن لم تكن المبادرة لم تصدر من أعلى مستوى.

شعرت كأن برأسي نزيف، كأن عطباً قد أصاب مخي فذهبت إلى طبيبة الأسرة الدكتورة ليونا تورنر إلمهورست بلونغ آيلاند وسألتها أن تجري لي فحصاً على مخي ففعلت ثم قالت إنني تحت تأثير ضغط شديد وأنني في حاجة إلى الراحة.

إنني لم أعد أرى كاسيوس كلاي ولكنني مدين له بأنه دعاني وزوجتي وبناتي دعوة كانت هدية منه بمناسبة عيد زواجي السادس في ذلك الوقت بالذات إلى نادي ميامي التي كان يتمرن به لمقابلة سوني لستون.

وكنت قد تعرفت إليه في دترويت في عام 1962 حيث كان حضر مع أخيه رادولف ومعظم الطلبة إلى النادي المجاور لمسجد دترويت حيث كان السيد محمد سيخطب في تجمع كبير. وأعجب المسلمون ببساطة وتلقائية الأخوين البطلين الأخاذين. وجاء كاسيوس وربت على يدي وقدم لي نفسه كما قدمها فيما بعد للعالم قائلاً: "كاسيوس كلاي" بلهجة من يفترض أن يعرف من هو، فتصرفت كما لو كنت أعرف ثم ذهب كل منا إلى حال سبيله، إذ إننا كنا من عالمين مختلفين للغاية زيادة على أن السيد محمد كان قد أمرنا بعدم ممارسة أي نوع من أنواع الرياضة.

وبدأ السيد محمد يتكلم فبدأ الأخوان يقودان التصفيق وزاد ذلك من إعجاب الناس بصدقهما سيما وأن تجمعا إسلامياً كان آخر مكان يمكن أن يبحث فيه المصارع لنفسه عن أنصار. بعد ذلك بدأت أسمع من حين لحين أن كاسيوس قد زار مسجداً أو مطعماً إسلامياً في هذه المدينة أو تلك. وكنت كلما خطبت في مكان يوجد هو على مقربة منه وجدته في الجمهور. ولعل ميزة ما فيه جعلتني أدعوه إلى بيتي مع أنني لم أكن أدعو إليه في العادة أحداً. كان في الواقع شخصاً يُحب، كان ودياً وأنيقاً وواقعياً. ولاحظت أنه ينتبه إلى أدق التفاصيل وشككت في أن تكون الدعاية الشائعة عن فظاظته إشاعة مرسومة فقلت له ذلك وقال إنه يستعمل كل الوسائل لهز ثقة سوني لستون في نفسه وتعقيده وجعله يدخل الحلبة غاضباً، كان (كلاي) مدرب وواثقاً في نفسه أكثر من اللازم ومطمئناً إلى أنه سيحقق ضرب قاضية أخرى من ضرباته.

ولم يكن كاسيوس يتقبل النصح وحسب، ولكنه كان يسعى إليه فقلت له إن نجاح الأبطال متوقف على مدى انتباههم ومعرفتهم بحقيقة طبائع ودوافع مَنْ يحيطون بهم، وحذرته من "الثعالب" وهو الاسم الذي كان يطلقه على البنات اللاتي كن يحطن به وقلت له إنهن في الحقيقة ذئاب لا ثعالب.

كانت تلك أول إجازة لبيتي منذ زواجنا. ومرحت بناتنا الثلاثة ولعبن مع المرشح لبطولة العالم في الوزن الثقيل. لا أعرف ماذا كنت سأفعل لو بقيت في ذلك الوقت الحرج في نيويورك محاصراً بتلفونات ترن بالصحافة وكل من كانوا يتحرقون على التمحيص والتأويل والشفقة. وكنت كمن عاش زواجاً منسجماً وجميلاً مدة اثنتي عشرة سنة ثم وجد رفيقه ذات صباح وهو يتناول فطوره يرمي إليه عبر المائدة بورقة الطلاق. أصبت بما يشبه الصدمة العاطفية وشعرت كأن شيئاً في الطبيعة قد تعطل، الشمس مثلاً أو النجوم. كانت الواقعة على ذلك القدر من الاستحالة والهول بحيث يستحيل قبولها. وحيث كنا نقيم كنت أكلم زوجتي والناس ولا أعي مما أقوله شيئاً. كانت الكلمات تخرج من زاوية صغيرة من عقلي بينما بقية عقلي يموج بألف صورة وصورة من السنوات الإثنى عشرة الماضية. صور من المساجد .. ومع السيد محمد .... ومع أهل السيد محمد... ومع المسلمين كجمهور وكأفراد في جلسات خاصة .. وصور مع البيض كجمهور وكصحافة. كانت الصور تدور في رأسي وأنا أمشي وأتكلم وأتحرك.

وفي يوم المقابلة قلت للصحفيين وكررت لهم أنني مقتنع في قرارة نفسي بأن عودتي إلى عمل بعد انقضاء فترة التسعين

يوماً هراء.كنت أعرف إنني انفصلت عن أمة الإسلام انفصالاً جسدياً وليس نفسانياً. هل تفهم ما أقوله؟ قد يوقع القاضي على ورق الطلاق ولكن الطلاق بالنسبة لأحد الطرفين أو لكليهما لا يستقر في نفسيهما إلا بعد سنوات.

وهكذا كانت شيكاغو قد دبرت مكيدتها لإبعادي من أمة الإسلام إن لم أقل من الحياة ولم يكن هناك ما أستطيع فعله لمنعها من ذلك ولم يكن قولي: إن البيض قد نالوا جزاءهم إلا فرصة انتهزتها وعللت بها أبعادي. ولما كانت المرحلة الأولى من الخطة قد تمت وأوُهم المسلمون بأنني تمردت فقد بدأت أننظر أن تبدأ المرحلة الثانية التي تقضي بإيقافي مؤقتاً في انتظار مقاطعتي لفترة غير محددة. وكنت أعتقد أنهم في المرحلة الثالثة سوف يقنعون أحد المسلمين الجاهلين للحقيقة بالتطوع لقتلي كواجب ديني أو الاكتفاء بأبعادي حتى أختفى نهائياً من مسرح الأحداث وهو ما حدث فعلا وتم قتل مالكوم إكس...

ويواصل مالكوم إكس حديثه قائلاً:

كانت زوجتي هي الشخص الوحيد الذي يعرف الحقيقة ولم يكن يخطر ببالي أبداً أنني سأصبح متكلاً على امرأة كما أصبحت متكلاً عليها في استمداد قواي المعنوية. لم تكن تتكلم في الموضوع وكانت هي تلوذ بالصمت بما عهد فيها من تفهم، ولكنني

كنت أشهر بمؤزراتها. كنت اعرف أنها تؤمن بالله قدر إيماني به، فكنت أعرف أنها ستبقى إلى جانبي مهما حدث. ولم أكن أخشى الموت لأنني كنت طوال السنوات الإثنتي عشرة الماضية مستعداً لفداء السيد محمد بحياتي، ولكن الخيانة كانت أشد عليَّ من الموت. كنت أستطيع أن أتقبل الموت ولم أكن أستطيع أن أتقبل خيانة كل ما أسلفته من ولاء لأمة الإسلام وللسيد محمد. ولو أن السيد محمد كان خلال السنوات الإثنتي عشرة الماضية قد ارتكب جريمة مدنية يستحق عليها الموت لحاولت أن أثبت أنني أنا الذي ارتكبتها ولذهبت إلى المشنقة عوضاً عنه.

وفي ميامي وأنا ضيف على كاسيوس كلاي كنت أبذل جهداً خارقاً لتحويل تفكيري من همومي إلى هموم أمة الإسلام وأحاول إقناع نفسي بأن المعاصي التي ارتكبها السيد محمد كان القصد منها إكمال شروط النبوة ذلك أنني كنت أؤمن بأنه يأتي بعد الله مباشرة.

ومع ذلك فشلت في مواراة أو تجاهل كونه لم يعترف بمسؤوليته أمام أتباعه كضعف بشري أو تكميل للنبوة، وهو ما كان المسلمون سيفهمونه أو يتقبلونه على الأقل، وأنه كان فوق كل ذلك يختفي ويخفي فعلته فصدمني ذلك بعنف. وانتبهت إلى أنني آمنت به أكثر مما آمن هو بنفسه فبدأت أسيطر على

أعصابي وأستجمع قواي لمواجهة الواقع والتفكير في نفسي لأول مرة بعد اثنتي عشرة سنة.

ورجعنا إلى بيتنا في لونغ آيلاند وهناك علمت أن استياء مسلمي شيكاغو مني قد زاد بسبب وقوفي في صف كاسيوس كلاي الذي عنفته الصحافة. كانوا يعتقدون أن كاسيوس لن يفوز.

وشعرت أن إرادة الله هي التي دبرت لي أن أساعده على إثبات تفوق الإسلام أمام العالم بإثبات تفوق العقل على العضلات، في الوقت الذي كانت الناس فيه تتكلم على إمكانية فوز كاسيوس على لستون باستهزاء، فقفلت راجعاً إلى فلوريدا ومعي صور فوتوغرافية لفلويد باترسون ولستون وإلى جانبهما كهان مسيحيون يعملون معهما كـ "مستشارين روحيين". ولم أكن في حاجة أن أذكر كاسيوس بما فعلته المسيحية البيضاء بالسود فاكتفيت بقولي له: "إن هذه المقابلة فاصل بين الحق والباطل، إنها صراع أول بين الصليب والهلال يجابه فيه مسلم مسيحياً لأول مرة وتنقله عدسات الكاميرات إلى العالم بأسره". قلت له: "هل تعتقد أن الله جبر هذا كله لو لم يكن قد كتب لك النصر"؟ ولذلك كان يقول يوم إقرار الوزن ولعلك تذكر ذلك أنه قد تنبأ له بالنصر وأنه لا يمكن أن يُهزم.

كان مدربو لستون ومستشاروه يعرفونه على الاندماج لا على

مصارعة كاسيوس، وكان قد استأجر بيتاً فخماً في منطقة بيضاء غنية كان جاره فيه هو دان نوينغ صاحب نادي نيويورك الأبيض للبايسبول. ولعل هذا يعطيك فكرة عن مدى غنى تلك المنطقة، في حين كنت أرافق كاسيوس في الأماسي إلى الأحياء السوداء فكان قد إذهل الزنوج أن يأتي إليهم ولا يذهب للأحياء الراقية مثل معظم الأبطال السود أو البيض. وكان يزيد في دهشتهم قول كاسيوي لهم: أنتم أهلي وأنا استمد قواي منكم". وكان على وشك أن يقابل مصارعاً مدمراً ويجهل الخوف.

ويوم المقابلة وجدت أن مقعدي في قصر المؤتمرات يحمل رقم سبعة، الرقم الذي أتفاءل به فاستبشرت. كان أخو كاسيوس رادولف يجري مقابلته الإقصائية الأولى وكان كاسيوس قلقاً عليه، ولكن في الوقت الذي كان رادولف يفوز فيه على زنجي من فلوريدا يدعى "شيب" جونسون كان كاسيوس يتابع المباراة من الخلف بمنتهى الهدوء في سترة سوداء. وكان ذلك إلى جانب تهكمه، وما قاله يوم الوزن كفيلاً بتنوير بعض الصحافيين الرياضيين الذين كانوا يتكهنون بهلاكه.

وذهب كاسيوس لتغيير ملابسه استعداداً لدخول الحلبة فدعوت له كما وعدته وجاء الخصمان أخيراً ووقف كل منهما في ركن من أركان الحلبة فشبكت في ذراعي على صدري

محاولاً أن أبدو هادئاً لاسيما والكاميرات في مثل ذلك الموقف كفيلة بأن تظهر المرء في أطوار قريبة من الجنون.

ومرت المقابلة حسب ما كان كاسيوس ينبغي في كل أطوارها باستثناء الجولتين الرابعة والخامسة اللتين فقد فيهما الرؤيا مؤقتاً. وكان يتحاشى لكمات خصمه القوية الذي كان الأعياء قد بدأ يظهر عليه ابتداء من الجولة الثالثة نظراً لتقدمه في السن ولصبه جميع قواه في الجولتين الأوليين ثم لم يلبث أن استسلم وانهزم.

كان تحولاً كبيراً في تاريخ الملاكمة يرجع السر فيه أن كلاي درس قبل المباراة بعدة أشهر إمكانات خصمه دراسة مستفيضة. وكان احتفال كلاي بفوزه بلقب بطل العالم في الوزن الثقيل احتفالاً غريباً. جاء إلى الفندق الذي أقيم فيه وأكل الآيس كريم وشرب الحليب تكلم مع جيمي براون بطل الكرة المستطيلة ومع أصدقاء آخرين ومع الصحافيين ثم نام قليلاً في غرفتي قبل أن يلتحق بمقر إقامته.

وفي اليوم التالي تناولت الفطور معه قبل أن يعقد ندوته الصحافية التي أعلن فيها للعالم أنه مسلم. ولكن دعني أوضح هنا شيئاً. إنه لم يقل أبداً أنه ينتمي إلى أي "مسلمين سود" ولكن الصحافة هي التي استنتجت ذلك من كلامه الذي جاء

فيه: "إنني أؤمن بالدين الإسلامي أي أنني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله شأن ما ينيف على سبع مائة مليون مسلم داكن اللون في إفريقيا وآسيا.

وكان أسخف رد في فورة الغضب التي تلت ذلك هو الذي جاء على لسان فلوريد باترسون الذي قال إنه يعلن ككاثوليكي منازل كاسيوس كلاي ليستخلص تاج بطولة الوزن الثقيل من يد مسلم، فكان بذلك مثالاً حياً على مأساة المسيحيين مغسولي الدماغ السود المستعدين لخوض معارك الرجل الأبيض وهو لا يأبه بهم. ولم تمر ثلاثة أسابيع على تصريحه ذاك حتى نشرت الصحف خبراً مفاده أن باترسون هذا يعرض بيته في يوكرز بنيويورك الذي يساوي 140000 دولار للبيع بخسارة لا تقل عن 20000 دولار. كان قد "سكن" في حي أبيض حول حياته إلى جحيم، لم يجد فيه شخصاً واحداً يبادله المودة وسمي فيه الأطفال أولاده بـ "الزنوج" ودرب أحد جيرانه كلبه على تخريب بيته وأقام أخر حاجزاً بينه وبينه ليخفي عنه منظر الزنوج فقال للصحافة وهو يترك ذلك الحي: "لقد حاولت وفشلت".

ثم جاءني أول تهديد بالقتل من شخص كان من أقرب من عملوا إلى جانبي في المسجد السابع بنيويورك ثم كلف أحد مساعدي الآخرين نظراً لخبرته في أعمال التخريب بوضع

قنبلة في سيارتي بحيث تنفجر بمجرد ما أشغل المحرك. وكان ما قد رآه من تفاني مني في أمة الإسلام ما دفع به إلى إطلاعي على الأمر فشكرته وأخبرته بحقيقة ما يجري في شيكاغو.

وتعهد هذا الأخ بتنبيه بقية الإخوة في المسجد السابع حتى لا يقعوا في الفخ. وكانت محادثة محاولة قتلي هذا الحد الفاصل الذي تم به الطلاق السيكولوجي بيني وبين أمة الإسلام، وبدأت بعد ذلك أرى في الشوارع والمتاجر والمصاعد ونواصي الطرقات والسيارات وغيرها من مسلمين أعرفهم وأقول لعل بينهم ما كلف بقتلي.

لم أعرف ماذا أفعل بعد ما كنت وقفت حياتي على صراع الإنسان الأسود وأصبحت في نظر معظم الناس زعيماً. وإذا بي في موقف لا أعرف فيه ما أفعله أو أدرك معنى لأن تكون لي إمكانات فطرية أساعد بها السود على كسب حقوقهم الإنسانية.

وكان لدي من الخبرة ما يكفي لإدراك أن أي عمل تنظيمي يجب أن يبدأ بمعرفة المؤهلات الثابتة عند من يعتزم القيام به. وقد كانت لي شهرتي العالمية التي لا تقيم بالمال، فكنت أعرف أن الناس وربما حتى في الخارج سيسمعون ما أقوله لهم إن كان يستحق أن يُسمع، وكنت في نيويورك حيث يتوافر لي عدد لا يستهان به من الأتباع غير المسلمين الذين كسبتهم يوم قدمت

تلك المظاهرة الزنجية إلى مقر الشرطة احتجاجاً على ضرب أخينا (هينتن)، والتي أثبتت لمئات الآلاف من زنوج هارليم أن السود يستطيعون أن يحققوا أهدافهم إن هم جابهوا البيض بلا خوف. كانت هارليم برمتها قد رأت كيف أن البوليس أصبح بعد ذلك يعامل المسلمين باحترام. وكان ذلك هو الوقت الذي قال فيه عميد شرطة الدائرة الثامنة والعشرين: "يجب ألا يتجمع لرجل واحد كل هذا القدر من السلطة".

بعد ذلك ثبت لي أن نسبة عالية من سود نيويورك يستجيبون لما أقوله لهم بمن فيهم عدد ممن لم يكونوا ليعترفوا بذلك علانية. كانت تجمعاتي مثلاً تستقطب أضعاف ما تستقطبه تجمعات من يسمون بـ "الزعماء الزنوج" وكنت أعرف أن الزعيم الحقيقي يكسب ثقة أتباعه ويستحقها، وأن الأتباع المخلصين ينضمون إليه طواعية وعن اقتناع وميل. وكنت أعرف أن ما يعوز مشاهير "الزعماء الزنوج" هو ذلك الرباط الحقيقي مع سكان الأحياء الزنجية، وأنهم لا يستطيعون أن يحققوه وان الاندماج يأخذ كل وقتهم. وكنت أعرف أن الزنوج يعرفون أن علاقتي بالأحياء الزنجية علاقة فكرية وجسدية لم تنقطع أبداً. كنت أعرف إيقاع الحي الزنجي وأشعر بارتفاع التوتر في جمهوره فوق العادة وأتكلم لغته وأفهمها. وهنا تحضرني حادثة أذكرها

كلما سمعت بعض "مشاهير الزنوج" يعلنون أنهم يتكلمون باسم سكان الأحياء الزنجية.

كنا قد أنهينا تجمعاً في الهواء الطلق وكنت أتكلم مع أحد هؤلاء "الزعماء" الذين يسكنون المركز فاقترب منا مهرب لا أظنني رأيته من قبل وكلمني بعامية الحي الزنجي وانصرف واستدرت فوجدت "الزعيم الزنجي" ساكن المركز يتابعه بنظراته بحيرة مَنْ لم يفهم مما قاله شيئاً وكأنه تكلم بالسنسكرينية ثم سألني: "ماذا قال لك؟ فقلت له إنه قال إن المسلمين ينظمون في قصر روكلاند المخصص للحفلات الراقصة مزاد لبيع العديد من الأشياء لجمع بعض المال وإنه سيراهن بعشرة دولارات ليساهم في العملية وأنه لا يملك شيئاً ولكنه يحاول أن يحسن حالته المادية وأنه ذاهب الآن ليأكل ثم ينام.

الغاية من هذا أنني كزعيم كنت أستطيع أن أتكلم أمام مكروفونات شبكات التلفزيون الوطنية الثلاثة وفي هارفارد وتاسكري ومع ما يدعي بـ "الطبقة الزنجية المتوسطة" وسكان الأحياء الزنجية الذين كان بقية الزعماء يكتفون بالكلام عليهم.

وكمهرب سابق كنت أعرف أكثر من كل البيض ومن كل "الزعماء السود" تقريباً أن المهرب في الأحياء الزنجية أخطر رجل أسود في أمريكا، لأنه يزدري الحكم الأبيض أكثر من أي

أسود آخر، لأنه ليس له أي رادع داخلي لا دين ولا مفهوم أخلاقي ولا مسؤولية مدنية ولا خوف ولا شيء. ولذلك تراه يعيش من نصب شباكه على الناس ويمض وقته في الترقب كالحيوان. المهرب في الحي الزنجي يعاني على الدوام الإحباط والقلق والتعطش إلى العنف، وكيفما كان العمل الذي اعتزم القيام به فإنه يقوم به حتى النهاية.

ومما يزيد في خطورة المهرب في الحي الزنجي أنه يحرص على بقاء بريق سمعته في أعين مراهقي الحي الذين تركوا المدرسة والذين يرون أن كدح آبائهم لم يسفر عن شيء في هذا العالم الأبيض الملئ بالعنصرية والأحقاد وعدم التسامح فيقررون أنهم سيصبحون مثل المهربين الذين يظهرون في أجمل الملابس ويلعبون بالأوراق المالية ولا يعيرون بالا شيء أو أحد. وهكذا يتم انجذاب مراهقي الأحياء الزنجية إلى عالم المهربين الحافل بالمخدرات والسرقة والدعارة والجريمة العمومية والانحلال، وهي حقيقة راعتني عندما اكتشفتها.

وفي مساء يوم حار من أيام الصيف ذهبت إلى تجمع كان يعقد في شوارع هارليم ضم عديداً من أولئك المراهقين. ذهبت بدعوة من زعيم زنجي "مسؤول": لم يكن قد كلمني من قبل. وكنت أقول لنفسي وأنا في الطريق إنهم يريدون استغلال اسمي لجلب

الجمهور، فكنت كلما فكرت في ذلك ازددت شعوراً بالحرارة. وصعدت المنصة فقلت للجمهور إنهم دعوني لا حباً في ولكن رغبة في استغلال اسمي ونزلت. وثار المراهقون وبدأوا يدورون ويصرخون فأغضبوا الزنوج الأكبر سناً. وتوقفت حركة المرور في الشوارع المجاورة وارتفع الغضب بشكل أقلقني فاعتليت سيارة ولوحت بذراعي وطلبت منهم أن يهدأوا فهدأوا، ثم طلبت منهم أن ينصرفوا فانصرفوا. وكان ذلك هو الوقت الذي بدأ يقال فيه إنني الزنجي الوحيد في أمريكا الذي يستطيع أن يبدأ أو أن يوقف حركة تمرد. لا أعرف إن كان بإمكاني أن أفعل ذلك، ولكنني أعرف أنني تعلمت من تلك الحادثة في دقائق أن أقدر قوة الاشتعال الكامنة في المهربين والشباب المعجب بهم الذي يعيش في أحياء زنجية أقفلها الرجل الشمالي الأبيض على الزنوج ليعدهم للوراء مدة قرون.

وجاءت أحداث صيف 1969 في هارليم وروشستر ومدن أخرى لتعطي فكرة على ما يمكن أن يحدث. لقد حوصر الشغب في الأماكن التي يعيش فيها الزنوج، ولكن الأحياء الزنجية في كل مكان من أمريكا يظل بما يعتريها من مرارة وغيظ، قابلة للانفجار والتدفق على أحياء البيض. في نيويورك مثلاً لو حدث وعبر السود الغاضبون المتنزه المركزي وتدفقوا على

شوارع مادسون والخامس ولكسنغتون وبارك لهدموا سراديبها. ولو أن حي المنطقة الجنوبية في شيكاغو وهو أسوأ من هارليم زحف على شارع بنسيلفانيا المركزي. ماذا تظن أن يحدث؟ وباعتبار أن دترويت عرفت مظاهرة سلمية شارك فيها مائة ألف من السود فإن الأمر يدعو للتأمل. وبإمكاني أن أستمر وأن أثبت أن خطر الانفجار الأسود موجود في كل مدينة أمريكية. في كليفلاند وفلادلفيا وسان فرانسيسكو ولوس أنجلس في كل مدينة يختمر الغضب الأسود

لقد بقيت بعيداً عن حوادث ومواقف تعلمت منها كما قلت تقدير الخطر الكامن في الأحياء الزنجية كما حاولت تقييم المؤهلات التي تخول لي التكلم باسم السود "كزعيم" حر، فوجدت أن القرار اتخذ نيابة عني وأن جماهير الأحياء الزنجية أفرغت عليَّ صفة الزعامة. كنت أعرف أن الحي الزنجي لا يمنح ثقته إلا لمن يثبت له أنه لن يبيعه للبيض، ولم أكن لأفكر في ذلك وما كان بيع ثقة أبناء جنسي من شيمي. وشعرت بالرغبة في التخطيط لإنشاء منظمة تساعد الإنسان الأسود في أمريكا الشمالية على الشفاء من المرض الذي يبقيه تحت كعب الرجل الأبيض.

نعم كان الإنسان الأسود في أمريكا مصاباً بمرض نفساني

جعله يقبل تراب الرجل الأبيض ويتقبله بوداعة الخرفان.وكان مصاباً بمرض روحي جعله يقبل مسيحية الرجل الأبيض مدة قرون، وهي تثبت له انعدام أية أخوة حقيقية وترضخه للقسوة التي يمارسها عليها مَنْ يسمون بالمسيحيين. المسيحية عتمت على تفكير الإنسان الأسود وأوقعته في الأشكال والغموض وقالت له إنه إن لم يكن له حذاء في هذه الدار. فإنه سيحصل على الحذاء وعلى الحليب والعسل والسمك المقلي في الجنة. وقد كان الإنسان الأسود في أمريكا يعاني فوق ذلك من مرض اقتصادي، بدليل أنه يجمع بين قلة الإنتاج وقلة الاستهلاك. الإنسان الأسود أكبر عالة.

السود ينفقون سنوياً في شراء السيارات ثلاثة مليارات من الدولارات، ولكن يوشك ألا يكون في أمريكا كلها بائع سيارات أسود واحد. أربعون في المائة من الويسكي المستهلك في أمريكا يصب في بطون السود المرضي بالمظاهر، ولكن معامل الخمور التي توجد في حوزة السود توجد إما في أحواض الاستحمام بالبيوت أو في جهة ما في الغابات. في نيويورك مثلاً، وهو عار، حيث يعيش أكثر من مليون من السود، ليست هناك شركة واحدة تشغل أكثر من عشرة سود فقط، وحيث أن السود لا يملكون في أحيائهم مؤسسات البيع بالتقسيط فإنهم

لا يستطيعون إحداث التوازن فيها.

لقد كان الإنسان الأسود في أمريكا أكثر من عانى من المرض السياسي بعدما سمح للرجل الأبيض بتوزيعه على أحزابه، في الوقت الذي كانت فيه عشرة ملايين من الأصوات السوداء كافية لتعديل ميزان السلطة في السياسة الأمريكية، لأن الأصوات البيضاء توشك أن تكون مقسمة بالتساوي. صناديق الاقتراع هي المكان الذي يمكن فيه للإنسان الأسود أن يناضل بكرامة مستعملاً السلطة والآليات التي فهمها ويخشاها ويتعامل معها الرجل الأبيض. دعني أقل لك شيئاً. لو أن لجنة سوداء مكتلة قالت لأكبر العنصرين في واشنطن إننا نمثل عشرة ملايين من الأصوات لهرعوا إليها ولقالوا لها: "كيف الحال؟ أهلا وسهلا ومرحبا". لو أن سود ولاية المسيسبي كانوا يصوتون جماعة لاضطر استلاند إلى أن يصبح ليبرالياً أكثر من جاكوب وجافيت أو لما بقى في مكتبة لحظة واحدة. هذه هي الحقيقة وإلا لما بذل السياسيون العنصريون كل ذلك الجهد لإبعاد السود عن صناديق الاقتراع.

وعندما تكون جماعة من الناس قادرة على التصويت الجماعي والتأثير في الانتخابات وفشل في ذلك، فإنه لابد أن تكون مصابة بمرض سياسي. لقد كانت جماعة قاعة

تاماري أكثر الجماعات تأثير في السياسة الأمريكية. في 1880 انتخب أول إرلندي عمدة على نيويورك، وفي 1960 حصلت أمريكا على أول رئيس جمهورية إرلندي. ولو أن السود الأمريكيين صوتوا جماعة لأصبحوا أكثر قوة من الأيرلنديين ذلك أن السياسة الأمريكية تسيرها التكتلات ذات المصالح الخاصة واللوبيات. وهل هناك جماعة لها مصلحة خاصة وعاجلة تحتاج إل تكتل ولوبي أكثر من السود.

إن العمال يملكون إحدى أكبر البنايات غير الحكومية في واشنطن في مكان يطل على البيت الأبيض مباشرة، وليس هناك من يتحرك تحركاً سياسياً واحداً قبل أن يعرف رأي العمال فيه. لقد ساعد أحد اللوبيات بيغ أويل على الحصول على مساعدة مالية كبيرة، ويحصل المزارعون بفضل لوبيهم على أهم المساعدات التي تقدمها الحكومة إلى أية جماعة في أمريكا، لأن المزارعين يصوتون كمزارعين لا كديموقراطيين أو جمهوريين أو ليبراليين أو محافظين.

ويتوافر الأطباء أفضل لوبي في واشنطن، وهو اللوبي الذي أفشل البرنامج الفدرالي الذي كان منتظراً أن يؤمن علاج المرضى الذين هم فوق الخامسة والستين رغم حاجة ملايين المواطنين إلى هذا البرنامج ورغبتهم فيه. وهناك لولبي

منتجي الشمندر ولوبي منتجي القمح ولوبي مربي الماشية ولوبي الصين ولوبيات بلاد صغيرة لم يسمع بها أحد تدافع عن مصالحها في واشنطن.

والحكومة لها وزارات للتعامل مع الجماعات ذات المصلحة الخاصة التي تعرف كيف تسمع صوتها وتثبت ذاتها، فوزارة الزراعة تهتم بحاجيات المزارعين، وهناك وزارة للصحة والتربية ومساعدة المعوزين ووزارة الداخلية التي يدخل الهنود الحمر في اختصاصها، فهل أن المزارع والطبيب والهندي يشكلون أكبر هموم أمريكا الآن؟طبعاً لا. السود هم أكبر هموم أمريكا في الوقت الراهن، وقد كان يجب والحالة هذه أن تكون هناك وزارة بحجم البانتغون لتعتني بكل جانب من جوانب مشاكلهم.

لقد قدم اثنان وعشرون مليوناً من السود لأمريكا قروناً من الكدح وماتوا من أجلها منذ الثورة وما يزالون إلى اليوم هم الأسفلون في كل شيء.

ولو أن كل واحد من هؤلاء الاثنين وعشرين مليوناً أعطى دولاراً واحداً، لبنوا ناطحة السحاب للوبي يمثلهم في واشنطن. كان يجب أن يتوصل كل من يعمل في الجهاز التشريعي كل صباح بمكالمة حول ما يترقبه السود في أمريكا وما يريدونه وما يحتاجون إليه. كان يجب أن يسمع اللوبي الأسود كل من

يدلي بصوته في أي شيء في الكونغرس.

إن حجر الزاوية في تسيير هذه البلاد هو القوة والسلطة الاقتصادية والسياسية وإذا كان الإنسان الأسود لا يملك القوة الاقتصادية ويحتاج إلى الوقت لاكتسابها. فإنه يمتلك القوة والسلطة السياسيتين وهما كفيلتان بتغيير مصيره بين عشية وضحاها.

الفصل السادس

رحلة حج مالكوم إكس وزيارة مكة

يقول مالكوم إكس عن رحلة الحج التي قام بها وزيارته لمكة المكرمة.

الحج ركن من أركان الإسلام واجب على مَنْ يستطيعه مرة في العمر. يقول الله في كتابه: (ولله على الناس حج البيت مَنْ استطاع إليه سبيلاً)، (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معدودات).

عندما كنت أحاضر في الجامعات كان يأتيني أشخاص بيض ويقولون لي إنهم عرب من الشرق الأوسط أو شمال إفريقيا يزورون الولايات المتحدة أو يدرسون بجامعاتها أو يقيمون فيها. وكانوا يقولون لي إن إدانتي للون الأبيض تتنافى وحسن إسلامي، وأنهم على يقين أنه لو تسنت لي معرفة الإسلام الحقيقي لفهمته واقتنعت به، ولكنني كنت أنفر من كلامهم ذاك بوصفي من أتباع (إلايجا محمد) وعندما وجدته يتكرر بدأت أراجع نفسي وأقول: «إذا كان إيمان المرء بدينه صادقاً حقاً فلم

لا يوسع معرفته بهذا الدين؟». وكنت قد أثرت ذلك مع (ولاس محمد ابن إلايجا محمد) الذي أحترم آراءه فأكد لي أن من واجب المسلم فعلاً أن يتعلم كل ما يستطيع تعلمه عن الإسلام.

وكان كل واحد من هؤلاء المسلمين العرب قد حثني على مقابلة رجل يدعى الدكتور محمود يوسف شواربي، وقال بعضهم إنه عالم مسلم تخرج في جامعة القاهرة وحصل على الدكتوراه من جامعة لندن وأنه يحاضر عن الإسلام وأنه مستشار في الأمم المتحدة وأستاذ بجامعة القاهرة وصاحب مؤلفات، وأنه يشغل الآن في نيويورك منصب مدير جامعة الجمعيات الإسلامية في الولايات المتحدة وكندا. وكنت كلما مررت بمكتبة الواقع في ريفر سايد درايف، أفكر في زيارته حتى كان يوم وقدمه لي أحد الصحافيين.

كان ودياً وقال إنه يتابع أخباري في الصحافة، فقلت له إنني سمعت به ثم تكلمنا مدة خمس عشرة أو عشرين دقيقة وانصرف كل منا إلى التزاماته بعدما كان قد قال لي شيئاً لم يبرح منطقه ذهني. قال إن المؤمن لا يؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

وهكذا وجدتني مع أختي إيلا التي لا تنفك تبهرني. وسبق لي أن قلت إنها جورجية سوداء من القوة والضخامة بمكان

وذات طابع مستبد أدى إلى إقصائها من مسجد بوسطن الحادي عشر ثم رجعت إليه ولكنها تركته طوعاً وبدأت تتعلم الإسلام السني ثم فتحت مدرسة لتعليم العربية جاءتها بأساتذة مختصين. وكانت فوق ذلك تتاجر في العقار وتدخر لتحج.

وتكلمنا في غرفة الاستقبال طول الليل فقالت إنها مقتنعة بأن حجي أهم من حجها. وفي طريق العودة إلى نيويورك بقيت لا أفكر إلا في إيلا. ما أقواها! أجهزت على ثلاثة أزواج كانت تفوق ثلاثتهم حيوية وعنفواناً. كانت المرأة التي لعبت دوراً أساسياً في حياتي واستطاعت أن توجهني وأنا مَنْ تعود توجيه النساء. كنت قد جئت بها إلى الإسلام وإذا بها تساعدني على أداء الحج.

إذا كان الإنسان مع الله كان الله معه وأرسل له عند الحاجة علامات على ذلك. ذهبت إلى السفارة السعودية لطلب التأشيرة، فقال لي السفير إن مَنْ يسلمون في أمريكا في حاجة إلى تزكية الدكتور محمود شواربي، فكانت تلك بداية العلامة على أن الله معي. وطلبت الدكتور شواربي هاتفياً فدهش وقال: «لقد كنت على وشك أن أطلبك. تعال فوراً، أرجوك». وذهبت فناولني رسالة التزكية وكتاباً بالإنجليزية من تأليف عبد الرحمن عزام تحت عنوان رسالة محمد الخالدة وقال: إن المؤلف قد أرسله إليه وكلفه بتسليمه لي وأنه (المؤلف) مواطن سعودي من أصل

مصري وشخصية سياسية مرموقة على الصعيد الدولي وأنه من مستشاري الملك فيصل المقربين وزاد: «إنه يتبع أخبارك في الصحافة عن قرب» فأذهلني أن يحدث ذلك في ذلك الوقت.

وأعطاني الدكتور شواربي رقم هاتف ابنه محمد الذي يتابع دراسته الجامعية في القاهرة ورقم هاتف ابن المؤلف عمر عزام في جدة وقال: «إن جدة هي آخر محطة لك قبل مكة. اتصل بهما أرجوك».

وتركت نيويورك دون ضجة وأنا لا أدري أن رجوعي إليها سيقيم الدنيا ويقعدها. كنت قد كتمت خبر سفري خوفاً من أن تخلق لي وزارة الخارجية العراقيل في آخر لحظة، فلم يرافقني إلى مطار كيندي الدولي إلا زوجتي (بيتي) وبناتي الثلاث وبعض مساعدي الأقربين. وأقلعت طائرة لوفتهانزا فظهرت لي العلامة الثانية على أن الله معي. كلمت جاري في الطائرة وإذا بهما مسلمان أحدهما متوجه مثلي إلى القاهرة والآخر إلى جدة محطتي التالية. وبقيت أكلمهما أو أقرأ كتاب عمر عزام حتى وصلنا فرانكفورت، وهناك ودعنا الأخ المتوجه إلى جدة وبقينا أنا والأخ الآخر ننتظر الطائرة المتوجهة إلى القاهرة. ولما كان ما يزال على موعدها عدة ساعات ارتأينا أن نزور فرانكفورت. وقبل ذلك قابلت في دورة المياه بالمطار أول أمريكي في الخارج،

طالب أبيض من رودس آيلاند يدرس في فرنسا. وتفحصني ثم مشى نحوي وقال: «هل أنت إكس؟» ولم أكن قد سمعت أحداً يناديني بتلك الصيغة فضحكت وقلت له نعم فقال: «مستحيل. يا إلهي! لن يصدقني أحد».

وأدهشتني أنا والأخ مسلم دماثه الناس في فرانكفورت. كنا ندخل الدكاكين والمتاجر للفرجة وحسب، فكانوا يستقبلوننا بالترحيب على الرغم من أنهم لم يرونا من قبل وعلى الرغم من أنهم يعرفون أننا أجانب، ولم تكن مودتهم تتغير حتى عندما كنا نخرج دون أن نشتري شيئاً. في أمريكا تدخل المتجر وتشتري وتخرج منه وتبقى أجنبياً. في أمريكا يتصرف البائع والمشتري وكأن كليهما يتفضل على الآخر، أما الأوروبيون فإنهم أكثر إنسانية أو أكثر رحمة إن شئت.

كان الأخ المسلم يعرف الألمانية بعض الشيء وكان يقول لهم إننا مسلمون فكنت أجد شيئاً كنت أجده حتى في أمريكا عندما كان الناس ينظرون إليَّ كمسلم لا كزنجي. عندما ينظر الناس إليك كمسلم فإنهم ينظرون إليك كإنسان فتتغير نظرتهم وطريقة كلامهم وكل شيء.

وفي دكان صغير بفرانكفورت انحنى البائع فوق الحاجز وقال بالإنجليزية مشيراً إلى الألمان المارين في الطريق: «اليوم

هكذا وغداً هكذا» فقال لي الأخ المسلم إنه يقصد أن الألمانيين سيثورون مرة أخرى.

وفي مطار فرانكفورت وجدنا جماعات من المسلمين من كل جنس ولون. كانوا يتعانقون وكان الجو حولهم مشبعاً بالحرارة والمودة، وفجأة انتبهت إلى أن اللون عندهم ليس مشكلة. كنت أشعر كأنني خرجت لتوي من السجن.

كنت قد قلت للأخ المسلم إنني أريد أن أبقي يومين في القاهرة لزيارتها فأعطاني رقم هاتفه وطلب مني أن أتصل به، وقال إنه يعرف أشخاصاً يتكلمون الإنجليزية سيحجون هذا العام، وأنه يريد أن يعرفني إليهم. وقضيت يومين في القاهرة وقفت فيهما بإعجاب على ما بنته مصر من مدارس عصرية ومساكن شعبية وطرق سيارة ومصانع. وكنت قد سمعت أن حكومة جمال عبد الناصر قد جعلت من مصر إحدى أكثر البلاد تصنيعاً في إفريقيا وأظن أن أكثر ما لفت انتباهي بها هو صناعة السيارات والحافلات.

كان ابن الدكتور شواربي البالغ من العمر تسع عشرة سنة والذي كان يدرس الاقتصاد والعلوم السياسية قد جال بي بالقاهرة وقال لي إن والده يحلم بإنشاء جامعة إسلامية في الولايات المتحدة.

كان الناس في القاهرة وديين وكانوا يدهشون عندما كانوا

يعرفون أنني مسلم من أمريكا؛ ومن بين مَنْ قابلتهم هناك أستاذ يدرس العلوم الطبيعية وزوجته كانا أيضاً ينويان أداء الحج ذلك العام. ودعياني للعشاء في مطعم بهيليوبوليس وهي إحدى ضواحي القاهرة فوجدتهما ذكيين وواسعي الإطلاع. ومما قاله الزوج لي إن عداء الدول الغربية الكبرى لمصر يعود إلى أنها تعطي المثال في النمو لباقي البلاد الإفريقية وسألتني الزوجة: «كيف يموت الناس جوعاً في العالم وأمريكا بها كل هذا الفائض من الطعام؟» ماذا تفعل به؟ هل تلقيه في البحر؟» فقلت لها: «نعم، تلقي ببعضه في البحر وتضع الباقي في بواخر شاغرة ومخازن وثلاجات تجعلها في رعاية جيش صغير من العمال إلى أن تفسد فيتولاها جيش آخر من عمال تصريف القمامة ليوضع مكانها طعام جديد، فنظرت إليَّ نظرة مَنْ لا يصدق وكأنها تحسبني أمزح، ولكن الأمريكيين يعرفون أنها الحقيقة. ولم أشأ أن أقول لها إن أمريكا نفسها يوجد فيها ناس يموتون جوعاً حتى لا تحسب أنني أغالي في المزاح.

ووجدت الحجاج الذين يعرفهم رفيق سفري المسلم في انتظاري، فانضممت إليهم وأصبحت ثامنهم ثم انضم إلينا قاض وموظف سام من وزارة التعليم. كانوا يتكلمون الإنجليزية بطلاقة واحتضنوني وكأنني واحد منهم، فاعتبرت ذلك علامة

ثالثة بأن الله معي وكنت حيثما توجهت أجد مَنْ يساعدني.

ويواصل مالكوم إكس حديثه عن رحلته للحج قائلاً:

الحج في اللغة العربية معناه قصد مكان معين وفي الشرع زيارة الكعبة أي البيت الحرام لأداء فريضة الحج. في مطار القاهرة كان العشرات يحرمون أي يدخلون في الحج، وكان بعض الإخوة قد نصحني بترك متاعي في القاهرة بما فيه ثلاث آلات تصوير وكاميرا ففعلت. واشتريت حقيبة صغيرة وضعت فيها بدلة وقميصاً وزوجاً من الملابس الداخلية وحذاء وحملتها معي. وفي الطريق إلى المطار بدأت أشعر بالقلق لأنني بدأت أدرك أنني على وشك أن أدخل مرحلة من المناسك سيكون عليَّ أن أفعلها بالنظر إلى الآخرين والتقليد.

وكذلك كان قد خلعنا ملابسنا في المطار وارتدينا فوطتين إحداهما وتسمى الإزار لففناها حول خواصرنا وشددناها بحزام جلدي يشتمل على محفظة النقود، والأخرى وتسمى الرضي وضعناها على كتفنا الأيسر تاركين الكتف والذراع الأيمن عاريين، وانتعلنا صندلاً يسمى النعل يبقى الكعبين عاريين أيضاً ووضعنا حول رقابنا محفظة فيها الجواز والأوراق الهامة الأخرى مثل رسالة الدكتور شواربي.

كانت ألوف الحجاج تغادر مطار القاهرة وهي على تلك الهيأة

التي لا يمكن أن يميز فيها بين الغني والفقير، وقد كان بيننا بعض ذوي النفوذ فعلاً ولكنهم كانوا يلبسون ما نلبسه. بعد ذلك شرعنا نقول: «لبيك اللهم لبيك!» ومعناها: «ها أنذا يا ربي!» حتى اهتز المطار بها.

كانت الطائرات تقلع على رأس كل بضع دقائق وهي محملة بالحجاج، ولكن المزيد منهم كان لا ينفك يتوافد على المطار ومعهم أهلهم وذووهم الذين جاؤوا مودعين والذين كانوا يطلبون منهم أن يدعوا لهم في ذلك المقام. وركبنا طائرة الخطوط العربية المتحدة، ولم أعلم إلا بعدما أقلعت بنا أنهم أنزلوا حاجاً آخر لأركب أنا فشعرت بمزيج من الأسف والتواضع والامتنان.

كانت الطائرة مكتظة بحجاج بيض وسود وسمر وحمر وصفر وشقر بعيون زرق، وأنا بينهم بشعري الأكرت الأحمر وكلنا سواء يجمع بيننا الإسلام. وسرى خبري في الطائرة من مقعد إلى مقعد، أنني مسلم من أمريكا فالتفتت إلي الوجوه باسمة، وعندما قدم لنا الطعام كان الخبر قد وصل إلى غرفة القيادة، فجاء قائد الطائرة وهو مصري ليسلم عليَّ وإذا به أشد مني سواداً، كان سعيداً بمقابلة أمريكي مسلم ودعاني لزيارة غرفة القيادة فلبيت دعوته على الفور.

ودخلت غرفة القيادة وإذا بمساعده أشد منه سواداً. لم أكن في

حياتي قد رأيت رجلاً أسود يقود طائرة. ونظرت إلى سبورة القيادة بكل ما عليها من أزرار وإلى الربانين اللذين ينظران إليّ ويبتسمان ويغدقان عليَّ مزيداً من ذلك التكريم، فبقيت أنظر إلى السماء من خلال الزجاج وأفكر في ذلك. كنت قد ركبت من الطائرات في أمريكا ما قد لا يكون أي زنجي آخر قد ركبه، ولكن أحداً لم يدعني أبداً لزيارة غرفة القيادة. وكان بجانبي الحاجان اللذان يجلسان إلى جواري في الطائرة وأحدهما مصري والآخر سعودي، ونحن وقوف في تلك الغرفة في طريقنا إلى الحج، ومرة أخرى عرفت إن الله معي.

ورجعت إلى مقعدي وبقيت أردد مع الركاب: «لبيك اللهم لبيك!» حتى وصلنا جدة، وهي مدينة على البحر الأحمر يوجد بها المطار الذي تنزل فيه طائرات الحجاج وتقع على بعد حوالي أربعين ميلاً غرب مكة. كان مطار جدة أكثر اكتظاظاً من مطار القاهرة فشققنا حشوداً من كل جنس ووقفنا في صف طويل لاجتياز الجمارك. كانوا قد عينوا لنا المطوف الذي سيتولى نقلنا إلى مكة، وكان بعض الحجاج يكتفي بقول: «لبيك اللهم لبيك!» بينما يزيد عليها البعض الآخر: «لبيك لا شريك لك لبيك! إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك». وهو دعاء يؤكد وحدانية الله.

لم يكن هناك من رجل في ذلك المطار إلا كان يرتدي لباس

الإحرام ما عدا الموظفين والمطوفين وأعوانهم الذين كانوا يلبسون أقمصة طويلة وقلانس بيضاء وينتعلون النعال.

وكلمة مطوف مشتقة من الطواف ومعناه في اللغة العربية الدوران (حول الكعبة). كنت أشعر بالقلق والرهبة وأقول في نفسي وأنا في الصف: «أنظر ماذا ستبرز لهم!» كنت في قلب العالم الإسلامي، في النبع وكنت على وشك أن أبرز لهم الجواز الأمريكي الذي يرمز إلى نقيض كل ما ينادي به الإسلام. وشعر القاضي المصري بما يعتريني فربت على كتفي. وكنت حيثما وليت وجهي أجد حباً وتواضعاً وأخوة صادقة توشك أن تتجسد.

ووصلنا إلى موظفي الجمارك الذين ينظرون في الجوازات ويفتشون الحقائب ثم يسمحون للحجاج بالمرور، وحاولت فتح حقيبتي فلم تنفتح وخشيت أن يعتقدوا أن بها ممنوعات فكسرتها ثم فتح الموظف جوازي ووجده أمريكياً فقال شيئاً وبدأ أصدقائي يتكلمون من حولي بسرعة ويحركون أيديهم ويشيرون محاولين التوسط لي عنده، ثم طلب مني القاضي رسالة الدكتور شواربي فأعطيتها له وألقاها إلى الموظف فقرأها وأرجعها له وكأنه لم يقتنع، فدخل القاضي معه في نقاش. كنت كالغبي بينهما لا أستطيع أن أقول كلمة واحدة ولا أستطيع حتى أن أفهم ما يقال. وأخيراً التفت القاضي إليَّ وقال

بحزن إن عليَّ أن أمثل أمام القاضي الشرعي ليعطيني الإذن بدخول مكة. كان أصدقائي واجمين فقلت لهم: «لا تقلقوا عليَّ. لن يحدث لي شيء. إن الله سيرشدني» فقالوا إنهم سيدعون لي وجاء المطوف في قميصه الطويل يحثهم على الذهاب فذهبوا وأنا أرد على تلويحهم وأتبعهم بنظراتي. لم أكن في حياتي قد وجدتني بين مثل هذه الحشود، ومع ذلك شعرت بوحشة لم أشعر بها منذ كنت طفلاً.

كانت الساعة حوالي الثالثة من صباح يوم الجمعة وهو اليوم الذي يقابل يوم الأحد في الغرب الذي يجتمع الناس فيه للصلاة جماعة ومن ثم تسميته بالجمعة. ومعنى ذلك أنه يوم عطلة وأن المحكمة لا تفتح والقاضي لا يشتغل وأن عليَّ أن أنتظر حتى يوم السبت على الأقل.

ونادي موظف أحد مساعدي المطوفين وقال له شيئاً ثم شرح لي بإنجليزية ركيكة أنه سيذهب بي إلى مكان أقيم فيه موقتاً يوجد في المطار نفسه. وأردت أن أقول إن القانون ينص على ألا ينفصل المسافر عن جوازه، ولكنني عدلت عن ذلك وسرت مع مساعد المطوف. هو بطاقيته وقميصه الطويل وشبشبه وأنا في الفوطتين والنعل والناس من حولنا تتكلم كل اللغات ما عدا الإنجليزية فوجدتني في حالة يرثى لها.

كان في خارج المطار مباشرة مسجد وبناية من أربع طبقات وكان الفجر يقترب والطائرات تقلع وتنزل وأضواؤها تمسح المدرجات أو تلمع في الفضاء، وحجاج من كل مكان، من غانا وأندونيسيا واليابان وروسيا يخرجون من البناية التي نقصدها أو يدخلونها في منظر بشري زاه لا أظن أن أية كاميرا قد التقطت نظيره. ودخلنا البناية وصعدنا سلماً إلى الطبقة الرابعة ونحن نمر بأشخاص من الصين وأندونيسيا وأفغانستان ومن بينهم من ما يزال في لباسه الوطني. كانوا كأنهم صور على صفحات مجلة ناشينل جيوغرافيك.

وفي الطبقة الرابعة أدخلني دليلي غرفة بها حوالي خمسة عشر شخصاً معظمهم ينام مكوراً على السجادات، ومن بينهم نساء عرفتهن من رؤوسهن وأقدامهن المغطاة، وأومأ لي أن هذا هو المكان الذي سأبقى فيه. وكان روسي عجوز وزوجته صاحيين فحدقاً في. واستيقظ مصريان وفارسي وأخذوا ينظرون إلى الدليل وهو ينتحي بي ركناً ويفهمني بالإشارة أنه سيريني كيفية أداء الصلاة. تصور! كنت رجل دين مسلم وزعيماً في (أمة إسلام إلايجا محمد) ولم أكن أعرف كيف أصلي.

وحاولت أن أقلده وأنا أشعر بالعيون موجهة إلي وأشعر أنني لا أصل على الوجه الأكمل، إذ لم يكن من السهل على ركب

غربية تعودت الجلوس على الكراسي أن تنطوي بليونة ركب المسلمين. وركع الدليل فحاولت أن أركع ولكنني بقيت متصلباً. وبقي يعلمني ساعة من الزمن ثم ذهب بعدما أومأ لي بأنه سيعود. لم أكن أشعر بالنوم فبقيت أتمرن والمسلمون ينظرون إليَّ وأنا لا أبالي، حتى أصبحت أتقن السجود.

وأذن الفجر فاستيقظ النائمون وشعروا بي فبقينا نتبادل النظرات، ثم بدأت أدرك أهمية السجاد عند المسلمين. كان لكل شخص سجادة صلاة ولكل زوجين أو جماعة من الناس سجاد كبير. وصلى المسلمون في تلك الغرفة كل على سجادته ثم فرشوا فوق سجاد كبير منديلاً وأكلوا عليه فأصبح السجاد غرفة طعام، ثم حملوا الصحون والمنديل وجلسوا على السجاد فأصبح السجاد غرفة جلوس، وكانوا من قبل يفترشونه فكان غرفة نوم. حينذاك أدركت لماذا كان تاجر المسروقات في بوسطن يدفع لنا كل تلك المبالغ في السجاد الشرقي، أدركت أن غلاءه يعود إلى إتقانه الذي يعود إلى أهميته في بلاد له فيها كل هذه الوجوه من الاستعمال. فيما بعد رأيت في مكة استعمالاً آخر للسجاد. عندما كان ينشب نزاع بين شخصين كان رجل محترم ومحايد يأتي فيجلس على السجاد ويجلس الخصمان بين يديه فيصبح السجاد محكمة، وفي حالات أخرى

يصبح فصلاً دراسياً.

كان أحد المصريين ينظر إليَّ باستمرار من طرف خفي فابتسمت له فقام وجاء إلي وقال بالإنجليزية: «أهلاً» فأوسعت ابتسامتي وسألته عن اسمه فلم يفهم فقلت: «إسم إسم؟» ففكر ملياً ولم يفهم فجربنا بضع كلمات أخرى. كانت مفرداته جديدة وأقول: «سماء» وأشير إلى السماء فيضحك وأعيد: «سماء» مشيراً إليه بأن يكرر بعدي فكان يفعل وأقول: «طائرة... سجاد... قدم... صندل... عيون...» وهكذا ثم حدث شيء غريب. أسعدني أنني وجدت أخيراً إنساناً أتفاهم معه فبدأت أقول أي شيء يخطر ببالي إلى أن قلت: «محمد علي كلاي» فاستنار المسلمون كشجرة الميلاد وقال صديقي وهو يشير إلى: «أنت؟» فحركت رأسي بالنفي وقلت: لا، لا. محمد علي كلاي صديقي... صديقي!» وفهم البعض بعض الشيء ولم يفهم الآخرون، فشاع في البناية أنني محمد علي كلاي بطل العالم في الوزن الثقيل. فيما بعد علمت أنه ليس هناك في العالم الإسلامي رجل أو امرأة أو طفل لا يعرف أن صوني ليستون الذي يتصورونه غولاً قد هُزم على يد كاسيوس كلاي الذي أعلن للعالم أن اسمه قد أصبح محمد علي ودينه الإسلام وأن النصر جاءه من عند الله. وكان ذلك النوع من التواصل أهم ما حدث في تلك القاعة فغير

موقف سكانها مني بعدما عرفوا أنني أمريكي. أصبحت نظراتهم إلى مشفوعة بالمراقبة وبدأوا يكثرون من الابتسام والاقتراب مني والتفرس في وكأنني رجل من المريخ.

ورجع مساعد المطوف فأومأ لي بأن أتبعه، ثم أشار من الشرفة إلى المسجد ففهمت أنه جاء ليأخذني لصلاة الفجر، فتبعته واختلطنا بآلاف الحجاج الذين كانوا يتكلمون كل الألسن ما عدا اللسان الإنجليزي. وسرت معه وأنا حانق على نفسي لكوني لم أتعلم الصلاة قبل أن أغادر أمريكا. كنا في أمة إسلام إلايجا محمد لا نتلو الأدعية بالعربية، وكان أحد مسلمي بوسطن السنين واسمه عبد الحميد قد زارني في السجن منذ اثنتي عشرة سنة وبعث لي أدعية بالعربية فتعلمت كيف أنطقها ولكنني لم أستعملها. وارتأيت أن أراقب الدليل أولاً ثم أفعل ما يفعله ولم أجد صعوبة في إقناعه لأنه كان يفكر في الشيء نفسه على كل حال.

كان بجانب المسجد دورة مياه بها حوض يعتليه صف من الحنفيات للوضوء الذي يسبق الصلاة. كنت أعرف ذلك. وراقبت مساعد المطوف ولكنني عندما أردت أن أفعل كل شيء وحدي أخطأت، سيما وأن من سنن الوضوء ترتيب الفرائض.

بعد ذلك تبعته إلى المسجد ووقفت خلفه مباشرة وبدأت

أقرأ معه: «باسم الله الرحمن الرحيم» ثم بدأت أهمهم مردداً ما يقوله من غير معرفة دون أن يبدو ذلك عليَّ. أنا لا أريد أن يحمل قولي هذا محمل الطرافة لأنه لم يكن بالنسبة لي طريفاً. وأرجعني دليلي إلى الطبقة الرابعة في تلك البناية ثم تركني بعدما أفهمني أنه سيعود بعد ثلاث ساعات.

وخرجت إلى الشرفة وجعلت أطل على المطار. كانت الطائرات تحط تقلع في انتظام والحجاج يتدفقون من باب المطار بالألوف وبعضهم في ملابس زاهية ثم يغادرون إلى مكة على متن الحافلات والشاحنات والسيارات، بل وحتى على الأقدام أحياناً، فتمنيت لو كنت مع المشاة سيما وقد كان بوسعي أن أفعل ذلك على الأقل دون أن يعلمني إياه أحد.

كنت خائفاً ألا يسمحوا لي بزيارة مكة وأداء الحج، وكنت أتساءل عن نوع الأسئلة التي سيطرحها عليَّ القاضي وعن موعدي معه حين جاءني رجل وقال في تردد: «أمر ... أمريكي؟» ثم أومأ لي بأنه يريدني أن أقاسمه وزوجته فطورهما على سجادهما. وكنت أعرف أن دعوة رجل مسلم لك لشرب الشاي مع زوجته تفضل كبير منه، ولم أشأ أن أفرض نفسي عليه فحركت رأسي في ما معناه: «لا، شكراً» ولا أدري إن كان قد فهم دوافعي، ومع ذلك جاءني بكوب من الشاي وحلوى، فتذكرت أنني لم أفكر في

الأكل حتى ذلك الحين. وبدأ الآخرون يكلمونني بالإشارة. كانوا يأتونني ويبتسمون ويحركون رؤوسهم بعدما كان الرجل الذي يتكلم قليلاً من الإنجليزية قد نشر خبري في البناية ورحل.

كانت حركة السيارات قد كثرت والمسلمون يدبون باسمين في لباس الإحرام أو في أزياء وطنية. ولم يرجع مساعد المطوف في الموعد الذي حدده لي، فبدأت أقلق وأنا رجل قلق بطبعي. خفت أن يكون قد تخلى عني بعدما تبين له أنني حالة ميؤوس منها. وشعرت بالجوع. كان كل المسلمين في القاعة قد قدموا لي طعاماً رفضته، لأنني بصراحة لم أكن أعرف إن كان عليَّ آن آكل كما يأكلون من إناء واحد على سجاد به كل شيء.

وبقيت أتفرج على الساحة من تلك الشرفة، ثم عن لي أن أخرج فنزلت، وفي الطبقة الأولى خطر لي أن أحداً قد يأتي للسؤال عني فرجعت، وبعد حوالي خمس وأربعين دقيقة نزلت مرة أخرى ووجدت في الساحة مطعماً صغيراً فدخلته. كان مكتظاً وضاجاً بكلام بكل اللغات. وطلبت بالإشارة دجاجة مشوية كاملة وشيئاً كأنه قطع سميكة من البطاطس المقلية ثم رجعت إلى الساحة فافترست تلك الدجاجة شأن كل من كان حولي. ورأيت رجالاً يناهزون السبعين يجلسون متربعين ويأكلون في تؤدة ورضي وكأنهم في أفخم الفنادق. كان هؤلاء

المسلمون يأكلون معاً وينامون معاً وكان كل ما حولهم يبلور وحدة الإنسان في كنف وحدة الله.

وبقيت أخرج ذلك اليوم وأوغل في التجول مرة بعد مرة حتى وقعت على رجلين أسودين هززت لهما رأسي وإذا بأحدهما لدهشتي الشديدة يرد عليَّ بإنجليزية بريطانية، ولكن فرحتي لم تدم، إذ سرعان ما عرفت أنهما يتأهبان للذهاب إلى مكة. وقلت لهما إنني أمريكي فقالا إنهما من الحبشة وأنهما درساً في القاهرة ويعيشان في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية. فيما بعد تعجبت عندما قيل لي إن عشرة ملايين من سكان الحبشة مسلمون والباقي، أي ثمانية مسيحيون، على عكس الاعتقاد السائد بأن إثيوبيا مسيحية كلها، والحقيقة أن حكومتها مسيحية لأن الغرب يحرص على أن تكون كذلك.

وصليت المغرب ثم اضطجعت في سريري وأنا أشعر بالوحشة والوحدة، وبغتة لمعت في ذهني فكرة. كنت قد رأيت في الساحة أربعة رجال رسميين في مكتب عليه هاتف وتذكرت رقم الهاتف الذي أعطاه لي الدكتور شواربي في نيويورك، رقم ابن المؤلف الذي بعث لي كتابه والذي يعيش هنا في جدة!.

وما هي إلا دقائق حتى كنت عند الموظفين الأربعة. كان أحدهم يتكلم إنجليزية فأعطيته رسالة الدكتور شواربي في انفعال وقرأها

سراً ثم جهراً على أصحابه فقالوا في دهشة: «مسلم من أمريكا؟». وسألت الذي يتكلم الإنجليزية أن يطلب لي الدكتور عمر عزام ففعل بسرور. ورد عليه شخص كلمه بالعربية ولم يلبث الدكتور عزام أن جاء إلى المطار. شد على يدي بقوة والموظفون الأربعة ينظرون إلينا ويبتسمون. كان طويلاً، قوي البنية ومهذباً للغاية، وكان في أمريكا سيعتبر رجلاً أبيض. ولفت انتباهي بشدة أنني بسبب سلوكه لم أشعر أنه رجل أبيض. وقال معاتباً: «لماذا لم تكلمني من قبل؟» وأخرج للموظفين ورقة تعريف ما ثم استعمل هاتفهم ليتصل بأحد المسؤولين في المطار ثم قال له: «تعال!» وفي نصف ساعة كان قد فك أسري وأرجع لي حقيبتي وجوازي وأركبني إلى جواره في سيارته وأخذ يشق بي شوارع جدة وأنا بالفوطتين والنعل. وبفعل سلوكه لم أشعر بوجود أي فرق بيني وبينه. كنت قد سمعت بالكرم العربي ولكن حرارته تفوق كل تصور.

وسألته عن نفسه فعرفت أنه درس الهندسة المعمارية في سويسرا وتخصص في تخطيط المدن وأن الحكومة السعودية تستعيره من الأمم المتحدة ليشرف على أشغال إصلاح الحرمين وأن أخته متزوجة من نجل الملك فيصل.

وهكذا وجدتني في جدة في سيارة صهر ابن العاهل السعودي، ولم يكن ذلك أقصى ما كان الله سيمن به عليَّ، إذ

قال لي الدكتور عزام إن والده الذي كان يعرف بعزام باشا قبل أن يلغي جمال عبد الناصر الألقاب في مصر ينتظرني في بيته، والده المؤلف الذي بعث لي بتلك النسخة من كتابه. وزاد: «إنه يعمل مع الأمم المتحدة ويتابع أخبارك باهتمام كبير» فبقيت في تلك السيارة مذهولاً.

ووصلنا البيت في ساعة مبكرة من الصباح فوجدنا والد الدكتور عزام وعمه (وهو كيميائي) وصديقاً لهما قد استيقظوا لاستقبالي في ذلك الوقت المبكر فعانقوني على التوالي بحرارة. مع أنني لم أكن قد رأيت أولئك الرجال من قبل، عانقوني بحرارة واحتفوا بي احتفاء عظيماً. سأقول لك، إنني في حياتي لم أشهد نظيراً لذلك الاحتفاء والكرم.

وجاء خادم بالشاي والقهوة ثم انسحب. وسألوني أن آخذ كل راحتي. لم يكن هناك في ذلك البيت أثر لامرأة سعودية، بلد يخيل إلى المرء فيه بسهولة أنه خال من النساء.

كان الدكتور عبدالرحمن عزام يتكلم طوال الوقت وكانوا يسألونني بين الفينة والأخرى لماذا لم أطلبهم من قبل؟ ولا يفهمون لماذا لم أفعل ويسألون إن كنت قد تضايقت من بقائي في المطار. كانوا محرجين من ذلك ومن إرجاء سفري إلى مكة فحاولت أن أقنعهم بأن ذلك لم يسبب لي أية مضايقة ولكنهم

لم يقتنعوا.

وقال الدكتور عزام: «يجب أن تستريح» ثم حمل سماعة الهاتف وأخذ يتكلم ولم يكن ما يدبره ذلك الرجل المرموق بذلك الهاتف ليخطر على بالي، وعندما قيل لي إنني سأعود للعشاء معهم وأنني سأذهب في السيارة لم أكن أعرف أنني على وشك أن أشهد عصارة الكرم الإسلامي.

كان الدكتور عزام ينزل في جدة في جناح خاص بفندق جدة بالاس، ولأنني كنت ضيفهم بتوصية من أحد أصدقائهم، قرر أن ينتقل إلى بيت ابنه ويترك لي جناحه في الفندق. وحاولت عبثاً أن أعترض على ذلك عندما أدركته، ولما تركني الدكتور عزام الإبن في جناح والده وذهب، لم تعد هناك فائدة من الاعتراض.

كان رقم ذلك الجناح 214 وكان من ثلاث غرف وحمام في حجم غرف النوم الكبرى بفندق هيلتون نيويورك وشرفة تطل على المدينة العتيقة. وشعرت برغبة في الصلاة لم أشعر بها من قبل فصليت على سجاد غرفة الاستقبال.

لم يكن في حياتي كرجل أسود في أمريكا، ما يجعلني أعتبر أية خدمة تقدم لي خالصة لوجه الله. وذلك الصباح في ذلك الفندق الذي جئته من فراش بسيط في قاعة نوم جماعية، كنت أعيش لحظة من اللحظات القليلة في حياتي التي شعرت فيها بضعفي.

كان رجل أبيض (على الأقل كان في أمريكا سيعتبر كذلك) صهر ملك ومستشاره وشخصية دولية قد أعطاني جناحه الخاص لكي أرتاح دون أن تكون له أية مصلحة في ذلك. رجل في غنى تام عني ويملك كل شيء، أية مصلحة ستكون له في ذلك؟ الحقيقة أن معرفتي كانت كفيلة بأن تضره أكثر مما تنفعه. إنه يتتبع أخباري في الصحافة الأمريكية ويعرف أنني موصوم وموصوف بـ«العنصرية» و«معاداة البيض» وهو رجل أبيض بكل المقاييس، ويعرف أنني «مجرم» ومتهم فوق ذلك كله باستعمال الإسلام كمطية لممارساتي وفلسفاتي الإجرامية. وحتى لو فرضنا أنه يريد استغلالي فكيف يستغلني وهو يعلم أنني انفصلت عن إلايجا محمد وأمة الإسلام وهما «مصدر قواي» على حد تعبير الصحافة الأمريكية ويعلم أن المنظمة الوحيدة التي أملكها لا يتعدى عمرها الأسبوعين؟ ثم كيف يستغل رجلاً مثلي لا مال له وجاه لكي يؤدي فريضة الحج؟.

ذلك الصباح بدأت أعيد النظر في تقييمي لـ«الأبيض» وأدرك أننا عندما نستعمل عبارة «الرجل الأبيض» لا نقصد اللون وإنما نقصد المواقف والمعاملة. عندما نقول «رجل أبيض» في أمريكا نعنى مواقف خاصة ومعاملة خاصة للإنسان الأسود ولكل من ليس بأبيض، ولكنني في العالم الإسلامي

وجدت رجالاً بيضاً أكثر تلقائية في إخائهم من أي شخص آخر. ذلك الصباح تغيرت نظرتي الشاملة لـ«البيض» وسأورد هنا ما كتبته في ذلك الفندق والساعة تقارب منتصف النهار:

«أشعر بانفعال شديد وأنا جالس هنا في انتظار أن أمثل أمام لجنة الحج. نافذتي الغربية تطل على البحر والشوارع تحت تكتظ بحجاج من كل حدب وصوب يلهجون بالدعاء ويرتلون القرآن. مشهدهم جميل لم تبصر له عيني نظيراً وهذا الجو لم يسبق لي أن شعرت به. وعلى الرغم من انفعالي أشعر بالأمن والأمان وأنا على بعد آلاف الأميال من الحياة المناقضة التي عشتها. منذ أربع وعشرين ساعة كنت قلقاً ووحيداً في غرفة جماعية في الطبقة الرابعة من بناية الحجاج بالمطار، وأنا مع أشخاص لا أستطيع أن أتفاهم معهم وبمكالمة هاتفية واحدة قابلت رجلاً مرموقاً في العالم الإسلامي سأنام في فراشه. أحس أنني مع أصدقاء صادقين ومتدينين وأحس بالرغبة في الصلاة، شكراً لله والدعاء لزوجتي وبناتي في أمريكا وسؤال الله أن يكافئهن على تضحياتهن».

وصليت أربع ركعات كما قلت ثم نمت حوالي أربع ساعات حتى أيقظني جرس الهاتف وجدت المتكلم عزام الإبن وقال إنه سيأتي ليأخذني للعشاء بعد حوالي ساعة وأردت أن أشكره

وتعثرت فقاطعني قائلاً: «إن شاء الله».

وفتحت الباب لأنزل إلى البهو وأتفرج عليه قبل أن يأتي عزام، فوجدت رجلاً في لباس رسمي يخرج من الباب المقابل وينزل السلم وسط حاشية، فنزلت في إثرهم ثم سرت خلفهم إلى مدخل الفندق حيث كان أسطول من السيارات في انتظارهم. وما كاد الرجل يخرج إلى الشارع حتى هرع الناس إليه والتفوا حوله وأخذوا يقبلون يده وسألت عنه فقيل لي إنه مفتي القدس. فيما بعد جمعتني به جلسة خاصة وتحدثت معه حوالي نصف ساعة فوجدته ودياً ومهيباً وعلى إطلاع بما يجري في العالم وبآخر الأخبار في أمريكا.

لن أنسى عشاء تلك الليلة في بيت الدكتور عزام. ومرة أخرى سأعود إلى مذكرتي لاستحضار ما كتبته:

«لا أستطيع في قرارة نفسي أن أقول إن هؤلاء الرجال «بيض». لقد عاملوني كما لو كنت أخاهم وعاملني الدكتور الكبير كما لو كنت ابنه وكنت أشعر فعلاً كأنه أبي. واضح أنه دبلوماسي محنك، دبلوماسي بكل معنى الكلمة ورجل له إطلاع دقيق على شؤون العالم. معلوماته تنصب من معين لا ينضب. قال إن نسل الرسول فيه الأبيض والأسود وأن اللون في العالم الإسلامي لا يشكل مشكلة إلا في الأماكن التي يوجد بها تأثير

غربي، وأنه إذا حدث ووجد موقف من اللون في مكان ما من العالم الإسلامي فإنه يعكس مدى تأثير الغرب في ذلك المكان. وعلمت ونحن في العشاء أن لجنة الحج قد أحيطت علماً بأمري وأنني سأمثل بين يديها في الصباح.

وفي الصباح ذهبت إلى المحكمة فلم يكن بها فيها عدا القاضي الشيخ محمد حرقون إلاي وأخت من الهند كانت بروتستانتية وأسلمت وجاءت مثلي لتحج. وكانت سمراء، ذات وجه صغير يغطي حجاب معظمه. وكان القاضي رجلاً رحيماً ومهيباً. وسألني عدة أسئلة تعود إلى صدق إسلامي فأجبته بكل ما أملك من صدق. وأقر إسلامي وأعطاني كتابين أحدهما بالعربية والآخر بالإنجليزية ثم دون اسمي في سجل ثم رفع الجلسة وقال: «أرجوا أن تصبح داعية كبيراً للإسلام في أمريكا» فقلت له إنني أشاطره هذا الرجاء وأنني سوف أعمل على تحقيقه.

وأطلعت آل عزام على الخبر السعيد فسروا به ثم تغديت في الفندق ونمت بضع ساعات حتى أيقظني جرس الهاتف كان المتكلم محمد عبد العزيز ماجد رئيس البروتوكول الملكي وقال: «إن سيارة خاصة ستأتي لأخذك إلى مكة بعد العشاء» وأوصاني بالأكل جيداً لأن مناسك الحج تتطلب مجهوداً كبيراً. كان ذهولي حتى ذلك الحين قد بلغ حده فشعرت بما يفوق الذهول.

ورافقني شابان عربيان فسرنا في طريق سيار منار ومريح للغاية. كنا نصادف بين الفينة والفينة حراساً فكانوا يلقون على السيارة نظرة وكان السائق يلوح لهم ويمضي دون أن يحتاج حتى إلى تخفيض سرعته، وكنت أشعر بمزيج من الفرحة والأهمية والتواضع والامتنان.

ودخلنا مكة فإذا هي قديمة قدم الزمان، ثم سار السائق ببطء في أزقة ملتوية تصطف على جوانبها الدكاكين والحافلات والسيارات والشاحنات وتكتظ بعشرات الآلاف من الحجاج، وأوقف السيارة في مكان كان المطوف ينتظرني فيه، وكان عربياً قصير القامة وداكن اللون يضع القلنسوة البيضاء والقميص الطويل اللذين رأيتهما في المطار ولا يتكلم حرفاً واحداً من الإنجليزية.

وتركنا السيارة بجانب الحرم ثم توضأنا ودخلنا فإذا الحجاج يوشك أن يكون بعضهم فوق بعض ومنهم مَنْ يتمدد ومَنْ يجلس ومَنْ ينام ومَنْ يصلي ومَنْ يمشي، وإذا المسجد المشيد حول الكعبة في عظمة لا تستوعبها الكلمات، وإذا أنا أدرك بسرور غامر أن كل هذا تم على يد الدكتور عزام الإبن الذي كنت ضيفه منذ حين. إن حرم مكة عندما ينتهي إصلاحه سيفوق قصر تاج محل الهندي من حيث الجمال الهندسي.

وسرت وأنا أحمل نعلي خلف المطوف ثم رأيت الكعبة، بيت ضخم من الحجر الأسود تحدق به الألوف المؤلفة من الحجاج

نساء ورجالاً في كل الأحجام والأشكال والألوان. وكنت أعرف الدعاء الذي يتلى عند استقبال الكعبة فأخذت أردده: «اللهم أنت السلام ومنك السلام فاستقبلنا بالسلام يا رب!».

في الطواف يستحسن بعد كل شوط أن يقبل الحاج الحجر الأسود، فإن لم يستطع اكتفى بلمسه، فإن لم يستطع استقبله من بعيد ورفع يده مكبراً. ولما تبين لي أن تقبيلي له محال اكتفيت بالتكبير.

كنت أشعر بتخدر شامل وكان المطوف قد شق بي الحشود التي تطوف وتدعو وتطفح وجوهها بالإيمان ومن بينها شيوخ وعجزة يحملهم غيرهم. وأنهيت الأشواط السبعة فصليت ركعتين الأولى بالفاتحة وقل يا أيها الكافرون والثانية بالفاتحة وقل هو الله أحد والمطوف واقف يرد الطائفين عني. بعد ذلك شربنا من ماء زمزم أنا وهو ثم سعينا بين الصفا والمروة مكررين ما فعلته هاجر عندما كانت تبحث لابنها إسماعيل عن الماء. ذلك اليوم رجعت إلى الكعبة ثلاث مرات وطفت بها.

وفي اليوم التالي صلينا الصبح وخرجنا إلى عرفات ونحن نردد: «لبيك اللهم لبيك!» و«الله أكبر». كانت مكة محاطة بأخشن وأقحل شعاب رأيتها، شعاب يخيل إليك أنها من حمم.

ووصلنا عرفات في منتصف النهار فبقينا ندعو حتى المغرب ونقول ونحن نرفع أكفنا نحو السماء: «لا إله إلا الله وحده لا

شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير». وبتلك الوقفة في عرفات كنا قد أدينا أساس الحج الذي لا يصح حج من دونه. وبعدها رمينا الجمرات وحلق البعض رؤوسهم ولحاهم ولكنني قررت أن أبقي على شعر رأسي ولحيتي لأنني كنت أفكر في ما عسى أن تقوله زوجتي (بيتي) وبناتي إذا رأينني بلا لحية ولا شعر. بدت لي نيويورك بعيدة بعد السماء ولم تكن هناك جريدة أستطيع قراءتها فلم أعلم بما كان يحاك ضدي فيها. كان البوليس قد اكتشف بهارليم نادي مسلحين عُمره إثنتا عشرة سنة فأشيع أنني وراءه، كما كانت أمة إسلام الايجا محمد قد رفعت ضدي دعوى تطالبني فيها بإفراغ البيت الذي أسكنه في لونغ آيلاند وكان مراسلو وسائل الإعلام الأمريكية الكبرى في القاهرة يقلبون الدنيا عليَّ لمعرفة رأيي في الغضب الذي زعم أنني أشعلته والذي لم أكن أعرف عنه شيئاً. في ذلك الوقت لم أكن أعرف إلا ما تركته في أمريكا والذي يتعارض مع ما وجدته في العالم الإسلامي.

وكنت في عرفات قد جلست في خيمة كبيرة مع حوالي عشرين حاجاً كنت محط اهتمامهم بوصفي مسلماً من أمريكا، وكانوا قد سألوا عما لفت انتباهي في الحج، فبدأت أرد على سؤالهم وبدأت القلة التي تفهم الإنجليزية تترجم للآخرين وفاجأهم جوابي ولكنهم

وجدوه في الصميم. قلت لهم: «الأخوة. هي ما جدته في هذا البشر المنتمي إلى كل لون وجنس وأكدت لي قدرة الله الواحد».

ولعلني أخللت بالذوق، ولكنني انتهزت الفرصة فكلمتهم عن العنصرية الأمريكية وشرها وأثر فيهم ما سمعوه تأثيراً كبيراً هم المسلمون ذوو القلوب الرحيمة والإحساس بالحق والعدل. كانوا يعرفون محنة الإنسان الأسود في أمريكا، ولكنهم لم يكونوا يعرفون أنها لا إنسانية إلى ذلك الحد، وأنها تصيب النفس إصابة وخيمة. وكانوا يدركون أن العنصرية شر ما في الوجود لأنها دليل على عجز الإنسان، ولاسيما في الغرب.

كنت حتى ذلك الحين قد صغت في ذهني رسالة حول انعدام الإحساس باللون في العالم الإسلامي الراجع إلى التدين والإنسانية، وهما الصفتان اللتان كان أثرهما عليَّ يزداد يوماً بعد يوم ويغير تفكيري.

وكانت تلك الرسالة بالطبع لزوجتي بيتي، ولم أشك لحظة واحدة في أنها بعدما تفيق من الصدمة ستغير موقفها وتتبنى رأيي وأنها ستفهم أن الله هداني في أرض محمد وإبراهيم إلى الإسلام الحقيقي وفهم المعضلة العنصرية في أمريكا فهماً أفضل. وكتبت رسالة أخرى لأختي إيلا قلت لها فيها الشيء نفسه، وكنت أيضاً أعرف موقفها إذ كانت هي نفسها قد نوت الحج. وكتبت للدكتور شواربي الرجل الذي اقتنع بصدق إسلامي

ففتح لي أبواب مكة ثم أمضيت بقية الليل في نسخ رسائل في المعنى نفسه إلى أصدقائي المقربين ومن بينهم ولاص ابن الإيجا محمد الذي كان قد عبر لي عن اقتناعه بأن أمة الإسلام لن ينقذها إلا الإسلام السني. وكتبت لمساعدي المخلصين في مسجدي الجديد بهارليم وأرفقت لهم ملحوظة قلت فيها أن يوزعوا نسخاً من تلك الرسالة على الصحافة. كنت أعرف أن تلك الرسالة ستذهل الأصدقاء والأعداء والملايين ممن لم أكن أعرفهم والذين كانوا ينظرون إلى طوال الإثنتي عشرة سنة التي قضيتها مع إلايجا محمد على أنني داعية للكراهية. ولم تكن الرسالة من دون سوابق فقد كانت حياتي سلسلة من التحولات. في تلك الرسالة كتبت من صميم قلبي:

«في حياتي لم أشهد أصدق من هذا الإخاء بين أنس من كل الألوان والأجناس أذهلوني خلال الأسبوع الماضي بما رأيته منهم من لطف.

لقد مَنَّ الله عليَّ فحججت البيت وطفت به برفقة مطوف اسمه محمد وشربت من ماء زمزم وسعيت بين الصفا والمروة وصليت في منى ووقفت بعرفات مع عشرات الآلاف من الناس القادمين من كل أرض والذين يمثلون كل درجات الألوان البشرية من الشقر ذوي العيون الزرق إلى الأفارقة السود فأديت معهم المناسك نفسها في إخاء ووحدة كنت أحسب من تجريتي في

أمريكا أنهما أمران مستحيلان بين الإنسان الأبيض والأسود.

إن أمريكا في حاجة إلى فهم الإسلام لأنه الدين الوحيد الذي يملك حل مشكلة العنصرية فيها. وخلال سفري في العالم الإسلامي قابلت وكلمت بل وأكلت مع رجال كانوا سيعتبرون «بيضا» في أمريكا ولكن الإسلام محا الموقف «الأبيض» من سلوكهم، ورأيت لأول مرة في حياتي أناساً من كل الألوان لا ينظرون إلى ألوانهم ويعيشون في إخاء صادق وحقيقي.

قد يدهشكم ما سأقوله، ولكن ما رأيته وعشته في هذه الحجة قلب أفكاري وجعلني أتخلص بسهولة من بعض استنتاجاتي السابقة. لقد كنت دائماً أحاول على الرغم من اقتناعاتي السابقة أن أجابه الوقائع وأقبلها على ضوء التجارب والاكتشافات لأن لي عقلاً متفتحاً ومرناً وهما الصفتان الضروريتان للبحث عن الحقيقة.

وخلال الإثني عشر يوماً التي قضيتها في العالم الإسلامي أكلت من إناء واحد وشربت من كأس واحدة ونمت في فراش واحد (أو على سجاد واحد) وأنا أعبد رباً واحداً، مع مسلمين عيونهم زرقاء كأشد ما تكون الزرقة، وشعورهم شقراء كأشد ما تكون الشقرة، وجلدهم أبيض كأشد ما يكون البياض، رجال وجدت في أقوالهم وأفعالهم الإخلاص نفسه الذي وجدته عند

المسلمين السود القادمين من نيجيريا والسودان وغانا، وأكد لي تصرفهم أنهم يعتبرون أنفسهم أخوة متساوين معنا، لأن إيمانهم بالرب الواحد نزع «البياض» من أنفسهم وسلوكهم ومواقفهم ولذلك أعتقد أن الأمريكيين البيض إذا قبلوا وحدانية الله سيقبلون بالتالي وحدة الناس ويكفون عن وزنهم في الموازين وصدهم وإيذائهم لا لشيء إلا لاختلاف لونهم. وأمام السرطان العنصري الذي ينخر جسم أمريكا يجب أن تكون قلوب مسيحييها البيض أكثر تقبلاً للحل الإسلامي لأن التجربة أثبتت فاعليته وعسى أن تطبقه أمريكا قبل أن تدمرها العنصرية كما دمرت ألمانيا من قبل.

إن كل ساعة أمضيها في هذه البقاع المقدسة تزيدني فهماً لما يجري بين البيض والسود في أمريكا وتزيدني اقتناعا بأنه لا يحق لنا أن نلوم الزنجي الأمريكي على حساسيته العنصرية لأنها رد فعل على الوعي العنصري الأبيض الذي عانى منه منذ قرون عدة، وأن العنصرية ستقود أمريكا إلى الانتحار وأن الأمل الوحيد معقود على قدرة شبابها الجامعي الأبيض على رؤية خطر العنصرية والوقوف مع الحق.

إنني أحظى بتكريم لم أحظ به في حياتي وأشعر بتواضع وضعة لم أشعر بهما من قبل. من يصدق أن كل هذا يغدق

على زنجي أمريكي؟. من بضعة ليال أعطاني رجل كان في أمريكا سيعتبر «أبيض» (دبلوماسي في الأمم المتحدة وسفير ورفيق ملوك) أعطاني جناحه الخاص وفراشه وأعلم أنه صهر عاهل البلاد الملك فيصل فكلف ابنه بذات نفسه بالاتصال بي وإخباري بأنني أصبحت ضيف الدولة بأمر من والده المبجل. وأخذني رئيس البروتوكول الملكي بنفسه إلى محكمة الحج حيث صادق القاضي محمد حرقون على دخولي مكة وأعطاني كتابين عن الإسلام وضع عليهما خاتمة وتوقيعه، ودعا الله أن يوقفني إلى نشر الإسلام في أمريكا. ووضع رهن إشارتي سيارة وسائق ومرافق فبدأت انتقل في هذه الأرض المقدسة كيف أشاء. ووضعت الحكومة رهن إشارتي في كل مدينة زرتها مقر إقامة مكيف وخدما، وهو تكريم يخصص في أمريكا للملوك لا للزنوج فلله الحمد رب العالمين».

المخلص

الحاج مالك الشباز

(ملكوم إكس)

الفصل السابع

مالكوم إكس ضيفاً

على الملك فيصل عاهل السعودية

يواصل مالكوم إكس ذكرياته عن رحلته للمملكة العربية السعودية قائلاً كان الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية قد جعلني ضيف الدولة فعاد عليَّ ذلك بسيارة وسائق تركته دون خجل يجوب بي مكة ويعرفني بمعالمها. كانت جهات منها تبدو كما قلت في قدم الزمان، وجهات أخرى نسخة لأحدى ضواحي ميامي العصرية. ووضعت يدي على أرضها المقدسة فانتابني شعور لا يوصف.

كنت كمسلم من أمريكا محط اهتمام شديد، وكان الناس يخلطون بيني وبين كاسيوس كلاي، وكانت جريدة قد نشرت صورة لي معه في الأمم المتحدة فكان الناس يسألونني عنه بواسطة السائق الذي كان في الوقت نفسه مترجماً ومرافقاً. وكان حتى الأطفال يعرفون كلاي ويحبونه، وكانت قاعات السينما في الشرق وإفريقيا قد عرضت شريط مقابلته الحاسمة فكان

يملأ خيال العالم الإسلامي ويستحوذ على قلبه، وأقلتني تلك السيارة إلى عرفات ومنى للصلاة. كان هناك عدد مهول من السيارات وصرير الفرامل والعجلات وأصوات المنبهات، وأظن أنه ما من سيارة في تلك البقاع إلا وتنطلق باسم الله. وكنت قد بدأت أحفظ القرآن بالعربية فأصبحت مشكلتي مع الصلاة جسدية وحسب لأن الجلوس على قدمي بتلك الصورة التي لم أتعود عليها تسبب في تورم أصبع قدمي الكبرى، فكانت تؤلمني.

وسرعان ما تعودت على التقاليد الإسلامية وبدأت أتناول الطعام بيدي من إناء مشترك مع إخواني المسلمين، وأشرب دون تردد من الكأس نفسها واغتسل من الجرة الصغيرة عينها وأنام في العراء مع ثمانية أو عشرة أنفار على السجاد نفسه. وأذكر ليلة نمنا فيها في المزدلفة تحت السماء واكتشفت فيها أن الحجاج المنتمين إلى كل أرض ولون وطبقة ورتبة، الموظفين السامين منهم والمسئولين على السواء، كلهم يغطون بلفة واحدة.

قيل لي إن عدد الحجاج ذلك العام قد ضرب الرقم القياسي، وأخبرني برلماني تركي اسمه قاسم غوليك وهو يبتسم مزهواً أن أكثر من ست مائة حافلة جاءت من تركيا وحدها وعلى متنها ما يزيد على خمسين ألف حاج وحاجة، فقلت له إن أملي أن أرى اليوم الذي أجد فيه الطائرات والباخرات تغادر أمريكا

محملة بالحجاج.

كنت أرى الناس مكتلين حسب ألوانهم. لاحظت ذلك يوماً ثم بدأت أراقبه فقد كانت عندي بوصفي من أمريكا حساسية اتجاه اللون. ولاحظت شبهاً بين أفراد المجموعات، وكان ذلك يتم بمحض الاختيار ولم يكن له أي تفسير آخر. كان الأفارقة مع الأفارقة والباكستانيون مع الباكستانيين وهكذا. وعقدت العزم على أن أقول ذلك للأمريكيين عندما أعود، أنه عندما تكون هناك أخوة صادقة بين الألوان ولا يكون هناك شعور بالفصل ومركب الكمال والنقص، أن الناس تنجذب تلقائياً بشكل طبيعي نحو المجموعة التي تجمعها بها عوامل مشتركة.

وكنت أيضاً قد عزمت على ألا آتي في حجتي القادمة إلا وأنا أعرف قدراً لا بأس به من المفردات العربية الجوهرية. لقد حالفني الحظ هذه المرة فوقعت على إخوة حباهم الله سعة الصدر فترجموا لي، وعندما لم أكن أجد المترجم كنت أحس أنني أعمى أصم لا أفهم شيئاً مما يقال من حولي وعني أو يقال لي من طرف مَنْ لا يعرفون أنني «مسلم من أمريكا» لا يحفظ إلا ما تيسر من آيات قرآنية بالعربية ولا يستطيع فيما عدا ذلك إلا أن يهز رأسه ويبتسم، وإن كنت في الحقيقة لا أكتفي بهز الرأس والابتسام. كنت أفكر وأتأمل بمنطق أمريكي وأُول إن الناس

كانت ستقبل على الإسلام بأضعاف مضاعفة لو أن صورة الحج بألوانها وروحانيتها وصلت إليهم، وأن العرب لا يفهمون نفسية غير العرب ولا يدركون أهمية العلاقات العامة، إنهم يقولون: «إن شاء الله» ثم ينتظرون أن يأتيهم الناس مسلمين. أنا لا أقول إن الإسلام لا يسير، ولكن لو كان المسلمون يستعملون مناهج العلاقات العامة المتطور لسار بسرعة مضاعفة.

كان الناس في كل مكان يسألونني باستمرار عن العنصرية في أمريكا، وكنت رغماً عن خلفيتي أذهل من كون العنصرية هي الصورة الأساسية والوحيدة الموجودة في أذهان الناس عن أمريكا. وكنت خلال مئات المرات التي تحدثت فيها مع مسلمين من كل المستويات ومع غير المسلمين الذين رأيتهم فيما بعد عندما زرت إفريقيا السوداء، كنت لا أحجم أو أدع الفرصة تمر دون أن أتكلم على حقيقة الجرائم والأذيات والإهانات التي يتعرض لها الإنسان الأسود في أمريكا. كنت انتهز كل الفرص لأعلن عن محنة الإنسان الأمريكي الأسود. وكنت عندما فعلت ذلك في جبل عرفات وفي بهو فندق جدة أشير إلى أفراد معينين لأقرب الصورة من أذهانهم وأقول: «أنت... وأنت... لو كنت في أمريكا لسموك زنجياً ولقتلوك ورموك بالرصاص ووخزوك بالمناخس، ولوجهوا لك خراطيم النار ولضربوك بسبب لونك».

ودخلت في حوار طويل مع مفتي القدس وهو رجل أزرق العينين، أشقر الشعر قدمني إليه قاسم غوليك البرلماني التركي، وكان كلاهما متعمماً وعلى علم بما يجري في أمريكا، فسألني قاسم غوليك عن سبب انفصالي عن إلايجا محمد فقلت له إنني لا أحب أن أتكلم على خلافي معه، لأن ذلك ليس في صالح وحدة الأمريكيين السود، ففهم كلا الرجلين موقفي واقتنعا به.

وقابلت عمدة مكة الشيخ عبد الله الرائف وهو صحافي سابق كان قد كتب ينتقد سياسة بلدية مكة فعينه الملك فيصل عمدة عليها ليرى ما يفعله فنجح في مهمته نجاحاً شهد له به الجميع.

وأجرت التلفزة التونسية استطلاعاً عني بعنوان: «المسلم القادم من أمريكا» أجراه صحافي كان قد أجرى مقابلة مع إلايجا محمد في شيكاغو. وكنت قد حولت بهو فندق جدة إلى مقر لاستقبالاتي وبدأت أجلس فيه إلى شخصيات من بلاد مختلفة تتوق لسماع «الأمريكي المسلم» ومن بينها أفارقة سبق لهم أن زاروا أمريكا أو سمعوا بواقع الإنسان الأسود فيها. وما زلت أذكر ما حكاه وزير إفريقي، سافر إليها بدون زيه الوطني، عن الإهانات التي تعرض لها والتي كان مجرد كلامه عنها ما يزال إلى ذلك الحين يخرجه عن أطواره فتحتقن عيناه من الغضب ويقول وهو يشق الهواء بيديه: «لماذا يصبر الأمريكي

الأسود على كل ذلك الهوان؟ لماذا لا يدافع عن كرامته؟».

وأذكر أن موظفاً سودانياً سامياً عانقني وقال: «يا بطل الشعب الأمريكي الأسود!» وأن موظفاً هندياً سامياً بكى رحمة بمن أسماهم «أخواني في أرضكم». وفكرت مراراً في كثافة العصابة الموضوعة على أعين الزنوج في أمريكا والتي تمنعهم من رؤية أحوالهم والتفكير فيها بوصفهم جزءاً من شعوب العالم غير الأبيض. إن الزنجي الأمريكي لا يشعر بما تكنه له الملايين من أفراد شعوب العالم غير الأبيض من تعاطف وأخوة. هناك في تلك البقاع المقدسة وفي إفريقيا السوداء كونت قناعة بقيت معي إلى الآن، وهي أن على الزعماء الزنوج الأمريكيين أن يزوروا البلاد غير البيضاء ويقابلوا رجالاتها ولي اليقين أنهم سيرجعون (إذا كانوا صادقين ومتفتحين) بحلول أكثر فاعلية لمشاكل الأمريكيين السود، وأن الرسميين في البلاد غير البيضاء ولاسيما الأفارقة سيهمسون في آذانهم بأنهم سيضعون كل ثقلهم لصالح قضيتهم في الأمم المتحدة وغيرها.

إن هؤلاء الرسميين يعتقدون ومعهم الحق أن الزنجي في أمريكا يعيش في بلبلة وتفرقة لم يعد هو نفسه قادراً معها على معرفة قضيته. وقد قال لي الأفارقة إن الناس لا تعرف كيف تقدم المساعدة للسود الأمريكيين وهم لم يقدموا الدليل على أنهم يريدونها.

لقد منيت المنظمات الأمريكية السوداء وزعماؤها بفشل ذريع عندما عجزت عن إحلال اتصال قائم على الأخوة بين الأمريكيين السود والأمم الإفريقية المستقلة. وقد كان من الواجب أن يتوصل كل رئيس دولة إفريقي مع السود الأمريكيين مباشرة بتقارير عن تطورات صراعهم وليس بمنشورات وزارة الخارجية الأمريكية التي توعز دائماً بأن المشكل في طريقه إلى الحل.

وفي نهاية الحج حظيت بتشريف، وصليت شكراً لله عليه، وهو استقبال الملك فيصل لي. دخلت عليه فقام من مكتبه وجاء نحوي. وكان طويلاً ووسيماً فعنت لي فكرة لم تبرح بالي. قلت في نفسي: «هذه إحدى أبرز الشخصيات في العالم، ومع ذلك أنظر كيف تتساوى فيها العزة والتواضع!». وأشار إلى مقعد مواجه لمقعده فجلست وجلس المترجم، محمد عبد العزيز ماجد رئيس البروتوكول وهو مصري أسود كأنه جاء لتوه من هارليم.

وحاولت أن أعبر للملك عن امتناني لما لقيته من تكريم فحرك يده قائلاً ما ذلك إلا كرم مسلم مع مسلم آخر، مسلم من نوع خاص، وقال إنه فعل ذلك بسرور وإنه لم تكن له أية دوافع أخرى. وجاء خادم بنوعين من الشاي بهدوء والملك يتكلم. كنت قد عرفت ابنه محمد في أحد البرامج التلفزيونية في أمريكا حين كان طالباً بإحدى جامعات شمال كاليفورنيا.

وكان الملك قد قرأ ما كتبته الصحافة المصرية عن المسلمين السود فقال: «إذا كان ما كتبته هذه الصحف صحيحاً فإن ما يتبعه المسلمون السود ليس هو الإسلام الصحيح»، فشرحت له دوري في أمة الإسلام خلال الإثنتي عشرة سنة الماضية وقلت له إن هدفي من الحج هو معرفة الإسلام الصحيح فقال «هذا جيد» وأضاف: «على أن هناك عدداً كبيراً من المنشورات عن الإسلام بالإنجليزية ولذا فإن التعلل بعدم المعرفة ليس عذراً كما أنه لا ينبغي للمسلم الحق أن يسمح لغيره بتضليله».

وعندما غادرت جدة في نهاية أبريل 1964 متوجهاً إلى بيروت عاصمة لبنان الواقعة على البحر، كنت قد تركت جزءاً من نفسي في مكة المكرمة وأخذت جزءاً منها معي إلى الأبد. ومن بيروت ذهبت إلى نيجيريا، فغانا.

كان البعض ممن قابلتهم في الحج قد نصحوني بزيارة بعض المدن ومنها بيروت فعملت بنصحهم ووافقت على ألقاء محاضرة في جامعتها الأمريكية. وهناك بفندق بالم بيتش نمت لأول مرة منذ تركت أمريكا أطول وأهنأ نومة، ثم خرجت أتمشي فأثار انتباهي، بعد الأسابيع التي قضيتها في البقاع المقدسة، تصنع اللبنانيات وتأنقهن. بعد نساء البقاع المقدسة اللاتي كن في منتهى البساطة والرقة كانت النقلة عنيفة إلى

هؤلاء اللبنانيات النصف عربيات النصف فرنسيات اللاتي يدل لباسهن وسلوكهن في الشارع على أنهن أكثر حرية وأكثر جرأة.

كان التأثير الأوروبي واضحاً على التراث اللبناني، واتضح لي أن القوة والضعف المعنويين للبلدان يظهران بسرعة على مظهر النساء في تلك البلدان وسلوكهن في الشارع ولاسيما الشابات، لأن انحطاط الأخلاق وذهابها ينعكسان على النساء ويأتيان نتيجة سيادة الماديات. راقب النساء في أمريكا وستفهم ما أعنيه. ويبدو أن عالم اليوم لم يعد فيه إلا التطرف بين الشيء وضده، ولو أننا وجدنا الموقف الوسط وجمعنا بين النمو المادي والقيم الروحية لأوجدنا الجنة على الأرض.

وتكلمت في الجامعة الأمريكية في بيروت على واقع الإنسان الأمريكي الأسود. وقد سبق أن قلت إن الخطيب المجرب يحس برد فعل جمهوره وفي ذلك شعرت أن رد فعل الطلاب الأمريكيين الحاضرين ذاتي ودفاعي، ولكنهم بدأوا يتراجعون عنه تدريجياً مع طرحي للوقائع. ولاحظت أن مشاعر الطلاب ذوي الأصول الإفريقية تظهر عليهم بسهولة فريدة من نوعها.

وعلمت فيما بعد بدهشة بما نشرته الصحافة الأمريكية عن أن محاضرتي تلك سببت «اضطراباً» وهو شيء غير صحيح. أي اضطراب؟ لم يكن هناك أي اضطراب إطلاقاً. لا أعرف كيف

يسمح صحافي رصين لنفسه بالإبراق بمثل ذلك إلى جريدته عبر المحيط. لقد غطت الدايلي ستار البيروتية محاضرتي ولم يرد فيما كتبته ذكر لأي «اضطراب» لأنه لم يكن هناك اضطراب.

كان الطلاب الأفاقة قد أحدقوا بي في نهاية المحاضرة وطلبوا مني أوتوغرافات وعانقني بعضهم في حفاوة لم يسبق لي أن حظيت بها حتى من الزنوج الأمريكيين الأكثر كبتاً والأقل واقعية.

ومن بيروت رجعت بالطائرة إلى القاهرة ثم ذهبت إلى الإسكندرية بالقطار وأنا استعمل آلة تصويري في كل المحطات. وأخيراً وجدتني في طائرة متوجهة إلى نيجيريا. وخلال الرحلة التي استغرقت ست ساعات، كنت إما أتحدث مع الريان وهو بطل أولمبي في السباحة لعام 1960 أو أتكلم مع جاري وهو سياسي إفريقي متحمس كان يتمادى به الحماس حتى يوشك أن يصرخ. قال لي: «عندما يكون الناس في حالة الخروج من الجمود لا يكون لديهم الوقت للانتخابات» وكان يركز على أن الأمم الإفريقية التي ما تزال تحاول أن تتحرر ليست في حاجة إلى أي نظام سياسي يسمح بالتقسيم والخلاف، وأن الناس في إفريقيا لا تعرف معنى الانتخابات، وأن رفع مستواها الفكري موكول إلى الزعماء الذين يعلمون.

وفي (لاجوس) استقبلني البروفسور إيسيان أودوم من جامعة

إيبادام فكان كلانا سعيداً برؤية الآخر لأننا كنا قد تقابلنا في الولايات المتحدة عندما جاء لجمع عناصر كتابه حول أمة الإسلام الذي أسماه الوطنية السوداء. وأقام على شرفي في بيته تلك الليلة حفلة عشاء حضرها أساتذة وأصحاب مهن حرة. وأثناء العشاء سألني دكتور شاب إن كنت قد سمعت بما خلفه مقتل امرأة بيضاء في هارليم من غضب الصحافة النيويوركية وما ينسب إليَّ من مسؤولية غير مباشرة فيه. وزاد ان المرأة توفيت على إثر طعنة بالسكين بعدما هاجمها وزوجها شاب زنجي في هارليم التي كانا يملكان بها متجراً للملابس، وأن بعض أولئك الشباب ألقي عليهم القبض فاعترفوا بأنهم ينتمون إلى منظمة تسمى «الإخوة» قالوا إنها، حسب ما أوردته الصحف، تنتمي إلى «المسلمين السود» الذين انفصلوا عن أمة الإسلام ليلتحقوا بي، فقلت إنني أسمع ذلك لأول مرة وإنني لا استغرب العنف عندما أجده في الأحياء الزنجية التي يتكدس فيها السود كالحيوانات ويعاملون كالمجذومين وأن تحميلي المسؤولية شيء تعودناه من الرجل الأبيض الذي يبحث، كلما وقع في الأحياء السوداء ما لا يرضيه، عن كبش الفداء عوض أن يبحث عن المسببات. وقلت فيما يخص «الأخوة» إنني أعتبر كل السود إخواتي وأن ما يبذله الرجل الأبيض من جهود لتلطيخ اسمي لم ينجح إلا في جعل

ملايين السود ينظرون إليَّ كما لو كنت جو لويس.

وألقيت بقاعة ترانشارد في جامعة آيبدان محاضرة ناشدت فيها الأمم الإفريقية المستقلة أن تعمل على طرح القضية الآفرو أمريكية على الأمم المتحدة، وقلت إن اليهودي الأمريكي منسجم سياسياً واقتصادياً وثقافياً مع يهود العالم، وإن الوقت قد حان لينضم الآفرو أمريكيون إلى العالم الإفريقي. وقلت إننا نحن الآفرو أمريكيين نستطيع أن نبقى بأجسادنا في أمريكا ونكافح من أجل حقوقنا الدستورية، ولكننا فلسفياً وثقافياً في حاجة ماسة إلى العودة إلى حظيرة المجموعة الإفريقية والعمل في إطارها. وطرح على الشباب الإفريقي أسئلة سياسية في منتهى الذكاء لا نسمعها في أمريكا حتى في الكهول، ثم حدث شيء غريب. قام عجوز هندي وبدأ يعنفني على انتقادي لأمريكا فضجت القاعة بـ: «صه! صه!» وبالصياح والتصفير ولكنه حاول أن يتحداهم فانقضت عليه جماعة من الطلبة ففر إلى الخارج وتلك الجماعة تركض في إثره وتصرخ حتى أخرجوه من حظيرة الجامعة. لم أكن قد رأيت شيئاً مثل ذلك من قبل. وأفهمت فيما بعد أن ذلك العجوز متزوج من امرأة بيضاء وأنه يحاول الحصول على عمل في وكالة للبيض فيها نفوذ ففهمت دوافعه ولم تكن تلك آخر مرة أقف فيها على تطرف الأفارقة

في التعبير عن انفعالاتهم السياسية.

وفي مقر اتحاد الطلبة تدفقت عليَّ الأسئلة ومُنحت العضوية الشرفية في جمعية الطلبة المسلمين النيجيريين. ها هي البطاقة! ما تزال في محفظتي. مكتوب فيها: «الحاج ملكوم إكس. رقم التسجيل 138».

ومنحت إلى جانب العضوية اسماً جديداً وهو أوموال ومعناه في اللغة اليوروبية الإبن العائد فقلت بحق إنه تشريف أعتز به اعتزازاً كبيراً.

كان يوجد في نيجيريا حينذاك ست مائة أمريكي يعملون في نطاق كتائب السلام، وجدت البعض ممَنْ كلمتهم منهم محرجاً من آثام جنسه في أمريكا. وكان بينهم عشرون زنجياً أثار إعجابي من بينهم واحد يدعى لاري جاكسون وهو خريج جامعة مورغن ستايت بلودردايل، فلوريدا، وكان قد التحق بكتائب السلام سنة 1962.

واستضافتني برامج الإذاعة والتلفزة النيجيرية فشعرت بما أشعر به عندما أرى سوداً يديرون وكالات إعلامية خاصة بهم، أي التأثر الشديد، كما قابلت مراسلين صحافيين من بينهم زنجي يمثل نيوزويك ويقوم بجولة في إفريقيا استجوب خلالها رئيس الوزراء نكروما.

وقال لي بعض الرسميين النيجيريين: إن وكالة الإعلام الأمريكية تحاول أن تشيع بين الأفارقة أن أحوال الزنوج الأمريكيين في تحسن وأن العنصرية في أمريكا سيقضى عليها عما قريب، وأن الزعماء الأفارقة شأنهم شأن غيرهم يعرفون أن الحقيقة غير ذلك. وقال إن الواجهة الدبلوماسية لكل موظف رسمي في الأمم المتحدة اعتراف بازدواجية الرجل الأبيض الهائلة وتورطه في إبقاء شعوب العالم ذات الجذور الإفريقية منقسمة مادياً وإديولوجياً وسألني: «هل يعرف السود في بلادك أن ثمانين مليوناً من سكان القارة الأمريكية أصلهم من إفريقيا؟ إن مسيرة العالم ستتغير يوم تجتمع الشعوب ذات التراث الإفريقي المشترك تحت لواء الأخوة؟». ولم أكن قد سمعت زعيماً أمريكياً أسود يتكلم بمثل تلك الشمولية، فأثر في ذلك.

ومن (لا يغوس) ركبت الطائرة إلى أكرا عاصمة غانا. وأظن أن غانا هي البلد الذي يبلغ جمال الناس الطبيعي فيه مداهماً والتي تعد نبع الوحدة الإفريقية، ولكنني نزلت من الطائرة على نغمة نشاز. وجدت أمريكيا أبيض ذا وجه أحمر عرفني ووجدت عنده الجرأة فشد على يدي وأخبرني أنه من ألباما ودعاني للعشاء.

وعندما دخلت مطعم الفندق للفطور وجدته مكتظاً بهؤلاء البيض وهم يتكلمون على ثروة إفريقيا الخام وكأن النادلين

بلا آذان، فقلت في نفسي: «في أمريكا كانوا يطلقون الكلاب الضارية على السود ويضعون القنابل في كنائسهم في الوقت الذي يغلقون فيه أبواب كنائسهم في وجوههم، وها هم الآن يعودون إلى إفريقيا التي اختطف أجدادهم منها السود ورموا بهم في العبودية». أغاظني ذلك حتى كاد أن يفسد على فطوري وقررت بيني وبين نفسي ألا أفتح فمي في إفريقيا إلا لفضح ذلك الرجل الأبيض الذي يبتسم ملء فيه محاولاً هذه المرة استغلال خيرات إفريقيا المنجمية بعدما استغل خيراتها البشرية. وكنت مقتنعاً أن ذلك لا يتعارض مع قناعات الأخوة التي كونتها في البقاع المقدسة، لأن المسلمين «البيض» الذي حملوني على تغيير آرائي كانوا يطبقون الأخوة بشكل تلقائي، أما الأمريكيون «البيض» فإن من الصعب أن تجد بينهم من يشعر حيال السود بشكل تلقائي بأية أخوة مهما ابتسم.

كان المؤلف جوليان مايفيلد يتزعم في غانا على ما يبدو الأمريكيين السود المبعدين. وطلبته هاتفياً ثم ما أسرع ما وجدتني في بيته مع حوالي أربعين من الأمريكيين السود المبعدين الذين كانوا في انتظاري، ومن بينهم تجار ومهنيون أمثال البروكليني السابق والمناضل الدكتور روبيرت لي وزوجته وهما طبيبا أسنان تخليا عن جنسيتهما الأمريكية. وكانت هناك

أيضاً أليس ويندان ومايا أنجلو مايك وفكتوريا غارفن ولسلي لايسي الذين كونوا لجنة سموها «لجنة ملكوم إكس» تكفلت ببرنامج زيارتي المشحون. وها هي القصاصات التي نشرتها الصحف الإفريقية قبيل زيارتي، ها هي حقيبتي. سأقرأ لك منها: «إن الغانيين يعرفون اسم ملكوم إكس معرفتهم بكلاب الجنوب وخراطيم النار والمناخس والهراوات والوجوه القبيحة البيضاء المتقلصة من الكراهية... «إن انضمام ملكوم إكس إلى الكفاح لخير بشير في مسرح المقاومة الكئيبة والمقززة والمسالمة والمستسلمة والمعرضة لكل أنواع العنف»... «إن ملكوم إكس أول زعيم وطني آفرو أمريكي يقوم بعد الدكتور دوبوا بزيارة شخصية لغانا عساها أن تكون بداية لمرحلة جديدة في الصراع الأمريكي الأسود، لذا يحق لنا أن نوليها من الاهتمام أثر مما توليه لها وزارة الخارجية الأمريكية»... «إن ملكوم إكس أحد أهم الزعماء وأكثرهم نضالاً في الصراع الأمريكي الأسود، وهذا ما سيدفع بخصومه إلى بذل كل جهودهم للحط منه وتشويه زيارته». وقد أذهلني ذلك الاستقبال في بلاد تقع على بعد خمسة آلاف ميل من أمريكا.

وقرر رجال الصحافة تغطية نفقات إقامتي ومن بينهم بافو رئيس تحرير «ذو غانين تايمز» وأنيم مدير وكالة الأنباء الغانية

وكوفيني باتسا رئيس تحرير سبارك والأمين العام لإتحاد الصحافيين الأفارقة والسيد كاميرون دويودو وآخرون، وحاولت أن أعترض على ذلك دون جدوى فقبلت ضيافتهم شاكراً.

وفي حفل العشاء الذي دعاني إليه جوليان مايفيلد وزوجته البورتوريكانية التي كانت تشرف على برنامج وزارة الصحة في أكرا، تساقطت عليَّ الأسئلة من الأمريكيين السود المبعدين والعائدين إلى إفريقيا الأم. ليت الأمريكيين السود كانوا معي في تلك الزيارة! أقول ذلك لأن الترحيب الذي أغدق عليَّ لم يكن موجهاً لشخصي بقدر ما كان موجهاً لما أرمز إليه كمناضل أمريكي أسود.

وفي ندوة صحافية مكتظة كان أول سؤال على ما أظن حول سبب انفصالي عن إلايجا محمد وأمة الإسلام. وكانت إشاعة قد وصلت إلى الأفارقة مفادها أنه بني لنفسه قصراً في أريزونا فأجبت عن السؤال نافياً الإشاعة ومتجنباً النقد، وقلت إنني اختلفت معه حول الاتجاه والالتزام السياسيين اللازمين وحول تقوية الصراع الديني للوصول عن طريقه إلى تحقيق حقوق الإنسان الأسود. وقلت إنني أحترم أمة الإسلام لأنها بعثت في السود قوة سيكولوجية وجاءتهم بإصلاح معنوي واجتماعي وأن إلايجا محمد كان له تأثير أساسي على الأمريكيين السود.

وأكدت في تلك الندوة على ضرورة تقوية الاتصال والتعاون

بين الأفارقة والأمريكيين السود الذين تعرض صراعهم للكبت الشديد. وأذكر أنني استعملت كلمة «زنجي» فأوقفوني قائلين إنهم في إفريقيا لا يستعملونها، وأن كلمة آفرو أمريكي أكثر كرامة وأوسع دلالة فقدمت لهم اعتذاري عن ذلك ولا أظنني رجعت إلى استعمالها طيلة المدة التي قضيتها في إفريقيا.

وقلت في تلك الندوة إن الاثنين وعشرين مليوناً من الآفرو أمريكيين الموجودين في الولايات المتحدة يشكلون قوة كبرى يمكن أن تستفيد منها إفريقيا، وأن بإمكان الأمم الأفريقية ومن واجبها أن تستعمل من جهتها كل إمكاناتها في المحافل الدولية للقضاء على التمييز العنصري الأمريكي.

وقلت: «إن إفريقيا تقف كرجل واحد في وجه الأبرتايد في جنوب إفريقيا والتعسف في المستعمرات البرتغالية، ولكن جهودها ستذهب أدراج الرياح إذا لم تفهم أن لا فروورد ولا سالازار ولا بريطانيا ولا فرنسا ما كانوا ليستمروا لولا دعم الولايات المتحدة ومساندة المسؤولين في واشنطن».

كنت أعرف أن موظفاً من وزارة الخارجية الأمريكية هو مينن ليامز يقوم بزيارة رسمية إلى إفريقيا فانتهزت الفرصة وقلت: «كونوا على حذر من الموظفين الأمريكيين الذين يأتون إلى إفريقيا ويبتسمون لكم. صدقوني إنهم في أمريكا لا يبتسمون

لنا . وقلت إن بيض ميشيغان التي كان (مينن) والياً عليها في يوم من الأيام قد قتلوا أبي.

وفي نادي غانا تشرفت بحضور مزيد من الصحافيين والشخصيات ودعيت إلى بيت جوليا ابنة الكاتب الأمريكي الأسود رتشارد رايت، الهيفاء، الجميلة ذات الصوت الرخيم والمتزوجة من فرنسي شاب يشرف على نشر جريدة غانية والتي قابلت أمها إلين وأختها الصغرى راشيل فيما بعد في باريس.

وتكلمت مع سفراء في سفاراتهم فأعجبت بالسفير الجزائري بوصفه رجلاً يقف نفسه على النضال ويؤمن بالثورة العالمية كسبيل لحل مشاكل الجماهير المضطهدة ولا تقتصر رؤياه على الجزائريين وإنما تتعداهم لتشمل الآفرو أمريكيين والمضطهدين في كل مكان.

وكان السفير الصيني هوانغ ها رجلاً متبصراً ومناضلاً وتكلم بالخصوص عن جهود الغرب لفصل الأفارقة عن الشعوب ذات التراث الإفريقي، بينما كان السفير النيجيري معنياً جداً بمحنة الآفرو أمريكيين في أمريكا . وكان يعرفها عن قرب لأنه عاش في واشنطن ودرس بها شأنه شأن السفير المالي الذي عاش في نيويورك كسفير لبلاده في الأمم المتحدة.

وتناولت الفطور مع الدكتور ماكونن من غوانا البريطانية

وتحدثنا عن وحدة إفريقية تشمل الآفرو أمريكيين كما تكلمت مع نانا نكيتسيا وزير الثقافة الغاني على المشاكل الآفرو أمريكية.

ورجعت ذات مرة إلى الفندق فوجدت مكالمة من أمريكا في انتظاري من ممثل شركة الإذاعة الأمريكية مول غود وطرح عليَّ خلالها أسئلة حول منظمة «الأخوة» في هارليم ونادي الزنوج المسلحين وما إلى ذلك من المواضيع التي كانت الصحافة تربطني بها.

وفي القاعة الكبرى بجامعة غانا خاطبت أكبر جماهيري الإفريقية. كان هناك بعض البيض وحاولت دحض المزاعم التي تنشرها وكالة الإعلام الأمريكي عن العلاقات بين البيض والسود في أمريكا وشرح حقيقة المحنة التي يعانيها الآفرو أمريكيون على يد الرجل الأبيض، فوجهت كلامي إلى البيض في القاعة قائلاً: «إنني لم أر مثل هذا العدد من البيض يعامل مثل هذا العدد من السود بمثل هذه الرقة حتى جئت إفريقيا. كان على الآفرو أمريكيين الذين يصارعون من أجل الاندماج أن يأتوا إلى هنا ليروا كم تبتسمون للأفارقة. لقد حققتم الاندماج هنا ولكن هل تستطيعون أن تقولوا للأفارقة إنكم تفعلون الشيء نفسه مع السود في أمريكا؟ بالطبع لا! وأنتم لا تحبون الأفارقة أكثر مما تحبون الأمريكيين السود ولكن ما تحبونه هو معادتهم...».

كانت ألوانهم تتغير من الوردي إلى الأحمر وكانوا يعرفون أنني

أقول الحقيقة. وواصلت كلامي: «أنا لست معادياً للأمريكيين ولم آت إلى هنا لأدين أمريكا. يجب أن يكون ذلك واضحاً. لقد جئت لأقول الحقيقة فإذا كانت الحقيقة تدين أمريكا فلتدنها!».

وذات مساء أقام كوفي باكو وزير الدفاع الغاني ورئيس الجمعية الوطنية حفل عشاء على شرفي اجتمعت فيه من جديد بمعظم مَنْ سبق لي أن قابلتهم. كنت حسب ما قيل لي أول شخصية أجنبية بعد دوبوا يخصص لها مثل ذلك التكريم. كان هناك رقص وموسيقي وطعام غيني لذيذ. وكان العديد من الضيوف يسخرون فيما بينهم من تصرف السفير الأمريكي في حفل أقامه ذلك اليوم وأوشك أن يقتل فيه نفسه من مغالاته في الود والمرح. وقال البعض إنه كان يريد أن يعوضنا عن الحقيقة التي كنت لا أتواني عن نشرها.

وتوصلت بدعوة لم أكن أحلم بها لمخاطبة البرلمان الغاني وقررت أن أجعل ملاحظاتي مركزة وقوية فقلت: «كيف تدينون البرتغال وجنوب إفريقيا وتتسون أمريكا التي يُضرب السود فيها بالهراوات وتنهشهم الكلاب؟». وقلت إنني لا أفسر ذلك إلا بكونهم قد ذهبوا ضحية دعاية الوكالات الحكومية الأمريكية فسمعت مَنْ يقول في نهاية الخطبة: «نعم! سنساند الآفرو أمريكيين... معنوياً وجسدياً وحتى مادياً إن دعا الأمر». وجاءني

تشريف آخر كان قمة ما نالني في غانا إن لم أقل في إفريقيا وهو استقبال رئيس الدولة (نكروما) لي في قصره.

وفتشت تفتيشاً دقيقاً قبل دخولي القصر ولكنني فهمت أن يحيط الغانيون زعيمهم بكل إجراءات الأمن الضرورية وزادني ذلك احتراماً للإنسان الأسود الحر. وعندما دخلت مكتبه الطويل قام من نهايته في ثوب بسيط ومد لي يده والبسمة على وجهه الدقيق فتناولتها من توي، ثم جلسنا على أريكة وبدأنا نتكلم. كنت أعرف أنه مطلع على محنة الآفرو أمريكيين لأنه عاش سنوات في أمريكا ودرس بها. وتكلمنا على الوحدة بين الأفارقة والشعوب ذات الجذور الإفريقية واتفقنا على أن الوحدة الإفريقية هي الحل لمشاكل الشعوب ذات التراث الإفريقي المشترك. وتبينت لي مميزات شخصيته وهي الحرارة والقبول والواقعية. ومر الوقت بسرعة وعندما ودعني حملني تحياته الحارة والشخصية إلى الآفرو أمريكيين.

في مساء ذلك اليوم ذهبت إلى وانيبا الواقعة على بعد 39 ميلاً من أكرا لإلقاء محاضرة في معهد (نكروما) الآيديولوجي الذي يدرب فيه 200 طالب على مواصلة الثورة الثقافية الغانية. وهناك وقعت حادثة أخرى من ذلك النوع المذهل الذي ينفجر فيه الحماس السياسي عند الأفارقة. كنت أجيب

عن الأسئلة عندما وقف آفرو أمريكي شاب لم يكن يبدو أن أحداً من الحاضرين يعرفه وقال: «إنني زنجي أمريكي» وشرع يدافع دفاعاً مغلفاً عن الأمريكيين البيض فبدأ الطلبة الأفارقة يشوشون عليه ويسبونه ويقولون: «هل أنت عميل لروكفلر؟»... «لا تفسد أولادنا!» (وعلمت فيما بعد أنه أستاذ في إحدى المدارس الثانوية وأنه حصل على عمله ذاك بمساعدة وكالة الأساتذة ولكن الطلبة أطبقوا عليه من جديد ودفعوه بعيداً وهم يصرخون: «يا عميل!»... «سي. آي. إي!)... «يا عميل أمريكا!».

وأقام السفير الصيني السيد هوانغ هوا وحرمه على شرفي حفلة عشاء رسمية حضرها من بين مَنْ حضروها سفيراً الجزائر وكوبا وقابلت فيها السيدة دوبوا. وبعد العشاء عرضت ثلاثة أفلام أحدها بالألوان في الذكرى الرابعة عشرة لقيام الجمهورية في الصين ظهر فيه بوضوح المناضل الآفرو أمريكي روبيرت ليامز الشمال كاروليني الذي كان لاجئاً في كوبا بعدما دعا الآفرو أمريكيين إلى حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم، والثاني عن المساعدة الصينية للكفاح الآفرو أمريكي وظهر فيه ماو تسي تونغ وهو يصرح بذلك كما ظهرت صور للعنف الأبيض بما فيه عنف البوليس والمدنيين على الآفرو أمريكيين وهم يتظاهرون في مختلف المدن الأمريكية للمطالبة بالحقوق

المدنية. وكان الفيلم الأخير عرضاً مأساوياً للثورة الجزائرية.

وأخذتني «لجنة مالكوم إكس» من مقر إقامة السفير الصيني إلى نادي الصحافة حيث كانت سهرة راقصة منظمة على شرفي قد بدأت وحيث رأيت لأول مرة حياة الترف الغاني. كان الجو مشبعاً بالغبطة والسرور وطُلب مني أن ألقي كلمة ففعلت وأكدت فيها من جديد على تدعيم الوحدة بين الأفارقة والآفرو أمريكيين، ثم صحت من صميم فؤادي قائلاً: «ارقصوا وغنوا ولكن لا تنسوا مانديلاً وسوبوكوي ولومومبا وكل السود المحتجزين في سجون جنوب إفريقيا!». وقلت: «تتساءلون لم لا أرقص؟ إنني لا أرقص لأنني أريدكم أن تذكروا الاثنين وعشرين مليوناً من الآفرو أمريكيين الموجودين في الولايات المتحدة!» ولكن رقص الغانيين الساخن حرك كوامني. وأدت فتاة إفريقية جميلة أغنية «بلو مون» كما تؤديها سارة فوغان وعزف الجوق بطريقة (ميلت جاكسون) حيناً وحيناً آخر بطريقة (شارلي باركر).

وفي اليوم التالي وهو يوم سبت علمت أن كاسيوس كلاي قد وصل مع مرافقيه إلى مطار أكرا حيث خصص له استقبال ضخم. وشعرت أن أي لقاء بيننا قد يحرجه لأنه كان قد اختار إسلام إلايجا محمد ومع أنني لم أكن لأتضايق من مقابلته إلا أنني كنت أعرف أن الاتصال بي ممنوع عليه. وكنت أعرف أنه

ما يزال يذكر أنني كنت إلى جانبه وساندته وآمنت به عندما كان أولئك الذين يحتضنونه الآن مقتنعين بأن انتصاره ميؤوس منه ولذلك قررت أن أتحاشاه حتى لا أتسبب له في أية مشاكل.

وبعد ظهر ذلك اليوم أقام الحاج عيسي والي المندوب النيجيري السامي حفل غداء على شرفي. وكان رجلاً قصيراً بنظارات، بشوشاً للغاية وودياً، وكان قد عاش مدة عامين في واشنطن. وبعد الغداء وجه إلى ضيوفه كلمة ذكر فيها ما رآه من صور العنصرية عندما كان في أمريكا وتكلم على صداقاته مع الآفرو أمريكيين وأكد على ضرورة التعاون بين الأفارقة والآفرو أمريكيين، ثم قدم نسخة فاخرة من المجلة الأمريكية «هورايزن» التي كانت قد نشرت مقالاً بقلم الدكتور مورو بورغر من جامعة برينستن حول أمة الإسلام ومعه صورة لي على صفحة كاملة وصورة جميلة من مئات السنين لأمير نيجيري قوي البنية ووسيم وقال: «عندما أنظر إلى هاتين الصورتين أحس أن الرجلين واحد وأن الفرق الوحيد بينهما في لباسهما وفي كون أحدهما ولد في إفريقيا والآخر في أمريكا. وتأكيداً لما يربطنا بإخواننا الآفرو أمريكيين من أخوة سأعطي الحاج ملكوم إكس ثوباً كالذي يلبسه هذا النيجيري». وبهرني رونق الثوب الأزرق الجميل والعمامة البرتقالية التي تصحبه. وكان

علي أن أنحني ليتمكن سعادة المندوب من لف العمامة حول رأسي، وبعد ذلك أهداني ترجمة إنجليزية للقرآن في مجلدين.

وبعد هذا الغداء الذي لا ينسى أخذتني السيدة (شولي غراهام دوبوا) في سيارتها لزيارة وتصوير البيت الذي عاش فيه زوجها الزعيم الآفرو أمريكي وقضى فيه نحبه. وقالت لي إن الدكتور نكروما عامل زوجها عندما جاء إلى غانا معاملة الملوك وأغدق عليه من كل شيء وأنه زاره على فراش المرض وغادر والدموع في عينيه.

وختمت سلسلة الحفلات المقامة على شرفي بحفلة سفير كوبا السيد أرماندو إنترالغو غونساليس. وفي اليوم التالي وهو يوم أحد جاءت «لجنة ملكوم إكس» لتأخذني إلى المطار فاصطدمنا خارج الفندق بكاسيوس كلاي ورفاقه وهم عائدون من جولة صباحية، وتردد كاسيوس لحظة ثم قال شيئاً من قبيل: «كيف الحال؟» فلمعت في ذهني صورة صداقتنا التي كانت قبيل المقابلة التي غيرت مجرى حياته ورددت عليه بكلام أحسبه: «بخير وكيف حالك أنت؟». بعد ذلك أرسلت له برقية قلت له فيها إنني أريد أن أخبره بما يكنه له المسلمون في كل مكان من حب كبير وأنصحه بألا يدع أحداً يستعمله أو يدفع به إلى قول ما من شأنه أن يشوه صورته.

كنت أودع أعضاء «لجنة ملكوم إكس» في المطار عندما جاءت قافلة صغيرة مكونة من سيارات خمس سفراء لتوديعي فلم أعرف من دهشتي ما أقوله لهم. وفي الطائرة التي أقلتني إلى مونروفيا التي أمضيت بها يوماً، راجعت نفسي ووجدت أن ثاني أعظم ذكرى سأحملها معي إلى أمريكا بعد الديار المقدسة هي وعي إفريقيا بذاتها وثروتها وسلطتها ودورها العالمي الموعود.

ومن مونروفيا ذهبت إلى دكار عاصمة السينغال حيث اصطف الناس في المطار عندما سمعوا بالمسلم القادم من أمريكا ليسلموا علي ويطلبوا مني توقيعاتي. وقال لي أحدهم: «إننا لا نتكلم العربية ولكن الإسلام في قلوبنا» فقلت له إن ذلك شأني أيضاً.

ومن دكار ذهبت إلى المغرب وأمضيت يوماً تجولت فيه في الدار البيضاء وزرت قصبتها المشهورة.

وفي يوم الثلاثاء 9 مايو 1964 وهو يوم ذكرى ميلادي التاسعة والثلاثين ذهبت إلى الجزائر محملاً بتجربة اثني عشر رجلاً. وذكر لي سائق التاكسي الفظائع التي مارسها الفرنسيون على الجزائريين، وكيف كان يناور ليخرج منها بجسد سليم. وتمشيت في الجزائر العاصمة وأنا أسمع عبارات الشجب لأمريكا على مساندتها لجلادي الشعب الجزائري. كان الجزائريون عايشوا الموت عن قرب فلم يعودوا يرهبونه.

وأخيراً وجدتني على متن طائرة تابعة لشركة بأن أمريكان في رحلتها المتوجهة إلى نيويورك. وفي الرابعة وخمسة وعشرين دقيقة من بعد ظهر الخميس وصلت إلى مطار كينيدي. ونزل الركاب وتوجهوا إلى الجمارك فوجدت خمسين صحافياً ومصوراً في كامل عدتهم فقلت في نفسي إنني كنت على الطائرة نفسها مع شخصية كبيرة وإذا بي «الوغد» الذي كانوا له بالمرصاد الانفجارات التي كان يتكهن بها قد بدأت بالفعل في ذلك الصيف من عام 1964 في بعض المدن الأمريكية ولاسيما في هارليم. وكانت المقالات المنشورة في الرجل الأبيض تجعل مني رمزاً للتمرد والعنف الأمريكيين الأسودين حيثما ظهر فإني عاملاً محركاً لهما.

وهكذا وجدتني في مطار كيندي في خضم أضخم ندوة صحافية عرفتها. وبدأت الأضواء تشتغل عليَّ والأسئلة تأتيني من كل مكان: «السيد (مالكوم) ما هي حكاية جمعية الأخوة التي يقال إنها على علاقة بمنظمتك وأنها «السيد ملكوم إكس هل من تعليق على إن على الزنوج أن يشكلوا نوادي للمسلحين؟».

وأدركت أنني قد رجعت إلى أمريكا وبدأت أسمع من جديد أسئلة الرجل الذاتية والباحثة عن كبش الفداء. عندما يقتل الشباب الأبيض الأبرياء يسمون ذلك مشكلاً «اجتماعياً» وعندما

يقتل الشباب الأسود أحداً يبدأ جهاز البحث عمن يضعه في حبل المشنقة. عندما كان السود يعدمون من دون محاكمة كان يقال: «ستتحسن الأمور» وعندما كانوا يحتفظون بالبنادق في بيوتهم يقول الدستور لهم الحق في حماية أنفسهم، ولكن عندما بدأ السود يفكرون في الاحتفاظ بالبنادق في بيوتهم أصبح ذلك أمراً شنيعاً.

وقذفت أولئك الصحافيين بما لم يكن لهم في الحسبان فقلت إن على الأمريكيين السود أن يقلعوا عن التفكير فيما زرعه البيض في نفوسهم من أنهم ليس لهم أي بديل عن استجداء ما يسمى بـ«الحقوق المدنية»، إن على الأمريكيين السود أن يفهموا أن السود في أمريكا أصحاب قضية قد تحمل الولايات المتحدة أمام الأمم المتحدة بدعوى إنكار حقوق الإنسان وأن حال أمريكا في هذا الباب ليس أفضل من حال أنغولا أو جنوب إفريقيا وأنها لن تجد مفراً من الحكم عندما يصدر عليها فوق ترابها.

وحاولت الصحافة كما توقعت أن تحيد بي عن الموضوع فسألتني عن الرسالة التي بعثت بها من مكة وكنت مستعداً لذلك السؤال فقلت رداً عليه: «أرجو أن يثبت حجي بصفة نهائية انتماء مسجدنا إلى الـ750 مليوناً من المسلمين السنيين الموجودين في العالم، وأنا على يقين تام أن الأفارقة السود يعتبرون الـ22 مليوناً من الأمريكيين إخوة عثروا عليهم بعد

فراق طويل. إنهم يحبوننا ويتابعون صراعنا من أجل الحرية.

لقد أثلج صدورهم أننا نفيق من سباتنا العميق ونرمي عنا عقدة خجلنا من أخواننا السود وأرض أجدادنا، ذلك الخجل الذي زرعه فينا المسيحي الأبيض.

نعم كتبت رسالة من مكة تريدون الآن أن تعرفوا إن كنت قد قلت فيها إنني أقبل البيض كإخوة؟

وأنا أجيب بأن ما رأيته في أرض الإسلام وشعرت به وكتبته في تلك الرسالة قد وسع دائرة تفكيري وأنني وجدت عندي مشاعر أخوة وحباً أخوياً تجاه مسلمين بيض لم يكونوا يعيرون انتباهاً لجنس أي مسلم آخر أو لونه.

لقد أوسع الحج نطاق تفكيري وفتح بصيرتي فرأيت في أسبوعين ما لم أره في تسع وثلاثين سنة، رأيت كل الأجناس والألوان من البيض ذوي العيون الزرق حتى الأفارقة ذوي الجلود السوداء وقد ألفت بين قلوبهم الوحدة والأخوة الحقيقية فأصبحوا يعيشون وكأنهم ذات واحدة في كنف الله الواحد. لم أرى بينهم لا دعاة عنصرية ولا ليبراليين، ولغتهم على كل حال لا تتسع لمثل هذه المصطلحات.

نعم كنت أدين البيض كلهم بشدة ولكنني اكتشفت الآن أن هناك بيضاً قادرين على أن يكنوا للإنسان الأسود مشاعر أخوة صادقة.

ولقد فتح الإسلام الصحيح عيني على أن إدانة كل البيض كإدانة البيض للسود وهو شيء خطأ.

نعم اقتنعت بأن هناك بيضاً يودون بإخلاص معالجة العنصرية الزاحفة لتخريب هذه البلاد.

وقد غير موقفي ما رأيته وعشته في البقاع المقدسة من أخوة لم تقتصر علي وحدي، ولكنها شملت كل من كانوا هناك على اختلاف جنسياتهم وألوانهم. والآن وقد عدت إلى أمريكا، سوف يتحكم في موقفي كما يتحكم في موقف إخواني السود ما أراه هنا من عدم أخوة إلا فيما قل وندر ومن معاملة للسود لا تقتصر علىّ القلة الطيبة البيضاء، ولكنها تأتي من المائة وخمسين مليون أمريكي أبيض غير طيب وغير أخوي ومؤمن بالعنصرية وبأفضليته إيماناً راسخاً، وحتى من أولئك الذين يحسبون أنهم غير عنصريين، إلى أن يحدث ما يجعل عنصريتهم الكامنة في لاوعيهم تطفو على السطح.

إن عنصرية الرجل الأبيض هنا في أمريكا هي سبب كل ما يتخبط فيه من مشاكل مع شعوب العالم غير البيضاء، لأنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من رؤية النقص بصفة تلقائية في أي شخص من غير لونه كيفما كان.

ولقد ملت شعوب العالم غير البيضاء ترفعات الرجل الأبيض

وهذا ما يجعلكم اليوم في مطبات متعددة ليست فيتنام إلا وجهاً من وجوهها.

وفي هذا النصف الغربي من الكرة الأرضية يعاني مائة مليون من السكان ذوي الجذور الإفريقية الانقسام نتيجة ما يزرعه الرجل الأبيض بينهم من كراهية وعدم ثقة. يقع ذلك في جزر الهند الغربية وكوبا والبرازيل وفنزويلا وفي كل أمريكا الجنوبية والوسطى.

وفي إفريقيا نفسها ناور الرجل الأبيض للتفريق بين الإفريقي والعربي وبين المسيحي والمسلم. هل تتصورون ما قد يقع لو أن الشعوب ذات التراث الإفريقي اكتشفت ما يؤلف بينها من روابط الدم والأهداف المشتركة».

وتنفست الصحافة الصعداء ذلك اليوم عندما تخلصت مني ولعل الإخوان الأفارقة الذين كنت معهم إلى حين كانوا سيشعرون بأنني أعطيت الموضوع حقه.

تلك الليلة لم يتوقف هاتف بيتي عن الرنين. كان إخواني وأخواتي السود في نيويورك وضواحيها يطلبونني ليهنئوني على ما قلته بينما كان البيض يريدون مني أن أخطب في هذه الجهة أو تلك.

وفي اليوم التالي وأنا أسوق سيارتي وقفت عند ضوء أحمر

فاقتربت مني سيارة تسوقها امرأة بيضاء وبجانبها رجل أبيض. وأطل الرجل من النافذة ونادي:

«يا سيد ملكوم إكس» والتفت فأخرج يده من النافذة ومدها لي وهو يقول مبتسماً:

«هل يضيرك أن تصافح رجلاً أبيض؟» تصور! فقلت له والضوء يتغير إلى الأخضر:

«لا يضيرني أن أصافح أي رجل إذا كان إنساناً فهل أنت إنسان؟».

الفصل الثامن

اعترافات خاصة جداً

وعن أحداث عامي 1964، 1965 يعترف مالكوم إكس ويقول:

يجب أن أعترف بأن الزنوج أو الآفرو أمريكيين لم يظهروا أية رغبة في الحصول على حقهم بواسطة الأمم المتحدة. وقد كنت أعرف ذلك، لأن تأثير الرجل الأبيض على عقولهم كان تاماً بحيث لم يعودوا قادرين على رؤية مشكلاتهم إلا كحقوق مدنية، ولم يكن ما تبقى لي من عمر كافياً لإقناعهم بأنهم أصحاب قضية ذات حجم دولي.

وكنت أعرف أيضاً أن الزنوج لن يهرعوا إليَّ ليتبعوني إلى الإسلام السني الذي فتح بصيرتي وأوسع رؤياي وأقنعني بإمكانية وجود الأخوة بين بني الإنسان بغض النظر عن لونهم. وكان الزنوج الأمريكيون ولاسيما كبار السن منهم قد غاصوا في القمع المسيحي المركب.

وبدأت بعد رجوعي أدعو الزنوج إلى تجمعات أنظمها

بعد ظهر أو في مساء كل يوم أحد بقاعة أوديل الشهيرة في هارليم، فأخطب فيهم متحاشياً الإسلام، لأن أكثرهم لم يكن مسلماً ولأنني كنت أحاول استقطابهم جميعاً فكنت أقول:

«إنني لا أريد أن أخاطبكم بوصفكم مسلمين أو مسيحيين أو كاثوليكيين أو بروتستانتيين أو معمدانيين أو نظاميين أو ديموقراطيين أو جمهوريين أو مساونيين أو أعضاء في أية منظمة كانت وإنما أخاطبكم كسود أمريكيين وكسود في العالم، لأن تلك هي الصفة التي حرمتكم لا أقول من حقوقكم المدنية ولكن من حقوقكم الإنسانية، حقوقكم في الكرامة»... ولكنني بدأت أجد على وجوه الناس وفي أصواتهم بمن فيهم الذين كانوا يشدون على يدي بحماس ويطلبون أوتوغرافاتي، بدأت أجد من يقول لسان حاله: «سنرى» وأشعر بمن يعتريهم من حيرة وأفهمه.

وكان الإنسان الأسود قد سار منذ الحرب الأهلية في مسارات لم تفض به إلى شيء، وكان ظنه قد خاب في الدين المسيحي فأصبح خائفاً وحذراً ومرتاباً. وكنت في ذلك الوقت أفهمه أكثر من أي وقت وكنت قد رأيته بوضوح لأول مرة وأنا في الديار المقدسة بعيداً عن شكل أمريكا العنصري والأشياء التي تقسم البيض في أمريكا وكيفية انعكاس مواقفهم ودوافعهم

على الزنوج وتأثيرها فيهم، وكنت قد وقفت في مكة ولأول مرة في حياتي أمام الخالق وشعرت بأنني إنسان كامل الإنسانية. وفي سلام في تلك البقاع، في تلك الليلة التي قلت إن غطيط إخواني الحجاج قد منعني من النوم فيها، رجعت بي الذاكرة إلى ماض كنت أحسبه قد مضى إلى الأبد، إلى سنوات عمري الأولى عندما كنت طفلاً في الثامنة أو التاسعة من عمري. رأيتني مستلقياً على قفاي خلف بيتنا في (لانسينغ) ميشيغان على ربوة مخضرة كنا نسميها «ربوة هكتور» لعلها ما تزال هناك، أنظر إلى السماء والسحاب المتحركة وأحلم أحلام يقظة أراني فيها أخطب في جماهير غفيرة، ثم قفز بي التذكر من هناك إلى السجن عندما كنت أعاقب بالعزلة وأوضع في الزنزانة أو ما كنا نسميه «الحفرة» فأستلقي على قفاي على الفراش وأمضي في رؤية التخيلات نفسها. وأنا إلى الآن لا أعرف كيف تجلت لي تلك الرؤى حينذاك، ولو أنني قلت وقتها لأحد إني أراني أخطب في الجماهير لسخر مني وهل كان ذلك لي أنا نفسي في الحسبان؟.

وفي مكة استرجعت أيضاً شريط أحداثي مع (إلايجا محمد) خلال الإثنتي عشرة سنة التي قضيتها معه والتي كنت أؤمن به فيها إيماناً لا أحسبني قادراً على تصويره، فقد كنت أؤمن به

لا كزعيم بالمعنى البشري العادي للكلمة ولكن كزعيم رباني، فكنت أعتقد جازماً أنه معصوم من الخطأ ومن الذنوب. وهناك في الديار المقدسة وعلى إحدى الشعاب أدركت الخطأ الكبير في الإيمان ببشر إلى ذلك الحد.

كان أفقي الفكري قد اتسع في مكة فحاولت أن أشرح في رسائل طويلة إلى أصدقائي نظرتي الجديدة إلى صراع الإنسان الأسود ومشاكله في أمريكا، تلك النظرة التي وصلت إليها بعد بحث طويل عن العدل والحقيقة فكتبت لهم أنني سئمت الدعاية وأنني أريد أن أكون مع الحقيقة كيفما كان مصدرها، ومع العدل المجرد أياً كان المستفيد أو المتضرر منه، ومع الإنسان أولاً وقبل كل شيء ومع ما ينفع الإنسانية جمعاء.

وأحجمت الصحافة الأمريكية عن نشر أي شيء عن الاتجاه الجديد الذي كنت أحاول تلقينه للسود وعمدت في صيف 1964 «الطويل والحار والمضطرب» إلى اتهامي بتحريض السود، فكنت كلما سمعت ذلك أفقد السيطرة على نفسي أمام المكروفونات وأقول: «عندما تكون عوامل الانفجار الاجتماعي موجودة لا تحتاج الجماهير لمن يحرضها. عندما تجتمع في الحي الزنجي البطالة وسوء السكن والتعليم الأدنى وتكون فيه منذ سنوات، لا يحتاج لمن يشعله. إنه يشتعل تلقائياً من الداخل»...

وسموني «الزنجي الأشد غضباً في أمريكا» وهي تهمة لا أنفيها وقد كنت أعبر عما أشعر به، ثم ألا يقول الإنجيل: «أؤمن بالغضب. إن هناك وقتاً للغضب»؟. وسموني: «ملقن العنف والمحرض عليه» فقلت: كذبتم. أنا لست مع عنف ولكنني مع العدل. أنا أعتقد أن من حق البيض إذا ما هاجمهم السود وعجزت قوات الأمن عن أن تحميهم أو كانت لا تكفي لرد الهجوم عنهم أو رفضت أن ترده، أعتقد أن من حقهم في هذه الحالة حماية أنفسهم بالسلاح إن دعا الأمر وكذلك الشأن بالنسبة للسود. عندما يعجز القانون عن حمايتهم من هجومات البيض يصبح لهم الحق في حمل السلاح لحماية أنفسهم فبدأ يقال: «ملكوم إكس يدعو إلى تسلح الزنوج» وكان الذي أزعجهم في الأمر أنني رجل أسود يتكلم على الدفاع البدني ضد البيض. الرجل الأبيض يستطيع أن يعدم من دون محاكمة ويحرق ويضع القنابل ويضرب الزنوج ولا يرى أحد عيباً في ذلك ويكتفي بالقول: «صبرا!»... «إننا نحاصر التقاليد»... «ستتحسن الأمور». إنني أؤمن بأن الخضوع للأذى وعدم محاولة الدفاع عن النفس جريمة وإذا كان هذا ما تعنيه الفلسفة المسيحية وتدعو له الفلسفة الغاندية فإنهما في نظري فلسفتان إجراميتان.

إن المجتمع الأبيض يكره أن يكلمه أحد ولاسيما إذا كان

أسود على الجرائم التي ارتكبها البيض في حق السود، وأنا أعرف ذلك وأستغله ولذلك يسمونني بـ«الثوري» وهي تسمية تجعلني أبدو وكأنني قد ارتكبت جريمة. ولعل السود في حاجة إلى الثورة. ولكن دعونا أولاً نعرف معنى هذه الكلمة. إن الكلمة الموازية لها في اللغة الألمانية مأخوذة من القلب الكامل أي التغيير التام، وخير مثال على ذلك ما وقع في مصر عندما أزيح الملك فاروق وحل الرئيس جمال عبد الناصر محله. الثورة تحطيم نظام وإقامة نظام آخر مكانه كما حدث مع الثورة الجزائرية التي أخرجت الفرنسيين الذين كانوا هناك منذ مائة عام. فهل هذا هو ما يقصده الزنجي في أمريكا عندما يتكلم على الثورة؟ إنه يدين النظام ولكنه لا يحاول أن يقلبه أو أن يحطمه وكل ما يقصده بالتمرد هو المطالبة بقبوله في النظام القائم. وقد يؤدى هذا التمرد إذا كان حقيقياً إلى الصراع من أجل الحصول على ولايات سوداء منفصلة داخل البلاد وهو ما طالب به أفراد وجماعات منذ ما قبل الإيجا محمد.

لقد حمل الرجل الأبيض شعار «التعايش السلمي» ولكن ماذا كانت أفعاله بجانب ذلك القول؟ خلال كل مسيرته التاريخية كان يلوح باللواء المسيحي بيد ويحمل السيف والبندقية باليد الأخرى. ولترجع إلى بداية المسيحية. لقد ولد المذهب

الكاثوليكي وهو أساس المسيحية في إفريقيا على يد مَنْ تسميهم الكنيسة المسيحية بـ«آباء الصحراء» ولكن الكنيسة المسيحية أصيبت بداء العنصرية عندما دخلت أوروبا البيضاء، وبعد ذلك رجعت إلى إفريقيا تحمل الصليب وتغزو وتقتل وتستغل وتنهب وتغتصب وتعتو وتضرب وتدعو إلى السيادة البيضاء. وهكذا فرض الرجل الأبيض نفسه في زعامة العالم معتمداً على القوة المادية المجردة، فجرده ذلك من كل صلاحية روحانية، في حين أن التاريخ الإنساني يثبت في مختلف مراحله أن الزعامة الروحانية هي المعيار للزعامة الصحيحة، لأن الروحانيات تجذب الإنسان في حين أن القوة لا تخلف لديه إلا الخوف. وأنا أوافق أولئك العنصريين مائة في المائة عندما يقولون إن الأخوة لا يمكن أن تفرض بقوة القانون.

والحل الوحيد اليوم في أن يقود الدين الحق الحكومات. وأنا على يقين أن أمريكا في أمس الحاجة إلى الإسلام ولاسيما سكانها السود الذين عليهم أن يسألوا إلى أين وصلت بهم المسيحية التي كانوا أشد الناس غيرة عليها. ويمكن أن تذهب أبعد من ذلك ونسأل: «هذه المسيحية التي هي في يد الرجل الأبيض ومن تفسيره، إلى أين وصلت بالعالم؟. لقد أوصلت ثلثي سكانه غير البيض إلى التمرد والقول لثلثه الأبيض الباقي:

«أخرج!». وها هو الرجل الأبيض يخرج وها هم السكان غير البيض ما إن يخرجوا حتى يرجعوا إلى دياناتهم الأصلية التي كان يقول عنها إنها وثنية.

لقد كان الإسلام خلال ألف سنة الدين الوحيد الذي كان له من القوة ما جعله يقف في وجه مسيحية الرجل الأبيض ويحاربها وحده ويوقع المسيحية البيضاء في المحذور. وها هم الأفارقة يعودون إلى الإسلام، وها هي الحرب الصليبية التي انطلقت صوب الشرق تغير اتجاهها وها هو الإسلام يزحف الآن على الغرب. لقد أُغلق شرق آسيا في وجه المسيحية وبدأت إفريقيا تقبل على الإسلام إقبالاً كبيراً وأصبحت أوروبا لا دينية وبدأ يُعتقد أن أمريكا هي آخر معاقل المسيحية المتبقية في العالم بحضارتها المسيحية التي تساند الجنس الأبيض في كل مكان. وإذا كان الأمر كذلك وكانت المسيحية كما تطبق في أمريكا اليوم هي أفضل ما تبقى للعالم المسيحي فإن على المسيحية السلام.

هل تعرف أن بعض اللاهوتيين البروتستانتيين قد بدأوا يتكلمون في كتاباتهم على الفترة ما بعد المسيحية ويقصدون بها الزمن الحديث؟. فما هو يا ترى السبب الرئيسي للفشل الذي منيت به الكنيسة المسيحية؟ إنه عجزها عن التصدي

للعنصرية، فلتحصد الآن ما زرعته. ولقد زرعت العنصرية بكفر وها هي ذي الآن تحصدها.

تصور الضمير المسيحي لطوائف يحرسها شماسون يقفون على أبواب كنائسها في صبيحات أيام الأحد من عام 1965 ليقولوا لمن جاء من السود ليصلي: «لا يمكنك دخول بيت الله هذا!». والمهزلة الأكبر أن سانت أوغستان، المدينة التي تسمت في فلوريدا باسم الولي الإفريقي الأسود الذي أنقذ الكاثوليكية من الضلال، تشهد أعمال العنف العنصري.

إن الله يعطي ما يسمى بالمجتمع المسيحي الأبيض في كل مكان فرصة للتوبة والتكفير عما ارتكبه من جرائم استغلال شعوب العالم غير البيضاء واستعبادها، كما فعل مع فرعون ولكنه يأبي مثل فرعون إلا أن يتعنت ويتمادى في رفض الاعتراف بجرائمه والتوبة والتكفير عنها، إن القدرة على التوبة والتكفير غير موجودة في أغلبية الأمريكيين البيض ولا حتى في نصفهم أو ثلثهم؟.

ورجعت بعد مدة إلى الشرق الأوسط وأفريقيا وقضيت فيهما ثمانية عشر أسبوعاً قابلني فيها الرئيس المصري جمال عبد الناصر والرئيس التانزاني يوليوس نيريري والرئيس النيجيري ناموي زيكيوي ومندوب عن الرئيس الغاني السيد أوساجينو والرئيس الغيني سيكوتوري والرئيسي الكيني جومو

كينياتا والوزير الأول الأوغاندي الدكتور ملتون أوبوت ورجال دين أفارقة وعرب وآسيويين مسلمون وغير مسلمين.

والتقيت في كل البلاد التي زرتها بآفرو أمريكيين وبيض من كل المهن والخلفيات. ووجدت في إحدى البلاد الإفريقية سفيراً أمريكياً كان أكثر من يستحق الاحترام من السفراء الأمريكيين الآخرين، كما قال لي أحد الزعماء الأفارقة وتحدثت معه مساء كاملاً فقال لي وصدقته نظراً لما سمعته عنه أنه ينسى العنصرية عندما يكون في إفريقيا ويتصرف على أساس أنه يتعامل مع بشر ولا ينتبه إلا إلى اختلاف لغتهم، ولكنه عندما يرجع إلى أمريكا يصبح واعياً باللون فقلت له:

«هل تقصد أن المسؤول عن العنصرية ليس الرجل الأمريكي الأبيض وإنما المناخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي يغذي النفسية العنصرية لدى الرجل الأبيض؟» فقال:

«نعم». واتفقنا على أن المجتمع الأمريكي يجعل من الصعب على الناس في أمريكا أن يلتقوا ولا يكونوا واعين باختلاف لونهم واتفقنا على أنه لو أمكن القضاء على العنصرية في أمريكا لعاش الفقير والغني فيها عيشة كريمة.

وكشف لي حديثي مع ذلك السفير حقائق أحبها إلي أن الرجل الأبيض ليس شريراً بطبعه وأن المجتمع العنصري الأمريكي هو

الذي يدفع به إلى التصرف تصرفاً شريراً وأن ذلك المجتمع خلق ونمى نفسية تبرز أحط وأشنع ما في الطبع البشري.

وقابلت في إفريقيا رجلاً أبيض آخر على النقيض تماماً من ذلك السفير فشخص لي مضمون ما دار بيننا من حديث. كنت في تلك الرحلة أشعر بأنني تحت المراقبة، وكان الشخص المكلف بذلك بادياً للعيان وكريهاً، ولم أعرف الوكالة التي كان يعمل لحسابها وإلا لذكرت اسمها. المهم أنه أثارني عندما وجدت أنني لا أكاد أتناول طعامي في فندق ما دون أن أجده أمامي يراقبني وكأنني جون ديلينفر أو شخصية هامة.

وذات صباح ذهبت إليه وقلت له إنني أعرف أنه يتبعني وأنه إذا كان يريد أن يعرف شيئاً فلم لا يسألني عنه؟ وبدأ يتعجرف فقلت له بكل صراحة إنه غبي لأنه لم يحاول أن يعرفني أو يعرف ما أناضل من أجله وترك غيره يفكر بالنيابة عنه، وأنه مهما يكن نوع العمل الذي يقوم به الإنسان فإن عليه على الأقل أن يفكر لنفسه.

وأصابه قولي فلم يعقب عليه، ولكنه عاد بعد ذلك يقول إنني معاد لأمريكا وزارع فتنة ومخرب وربما شيوعي أيضاً، فقلت له إن ما قاله يدل على أنه لا يعرف عني شيئاً وإن أقصى ما تستطيع الإف. بي. آي أو السي. آي. إي أو غيرهما أن تثبته

ضدي هو انفتاحي الذهني. وقلت له إنني باحث عن الحقيقة وإنني أزن الأشياء بموازينها وإن ما أعارضه هو الأفكار الجاهزة والمجتمعات المفصلة على مقياس واحد. قلت له إنني أحترم حق كل إنسان في أن يؤمن بما يعتقد أنه الصواب، وانتظر أن أعامل بالمثل.

وبعد ذلك بدأ ذلك الجاموس يتهجم على معتقداتي الدينية في نطاق علاقتي بالمسلمين السود فقلت له: «ألم يخبرك رؤساؤك بأنني غيرت موقفي ومعتقداتي وأنني الآن أؤمن بالإسلام المتبع في مكة أن لا إله إلا الله وأن محمداً بن عبد الله الذي عاش في مكة المكرمة منذ أربعة عشر قرناً رسول الله وخاتم الأنبياء».

كنت قد ارتبت في شيء منذ البداية وأردت التأكد منه فغامرت وأفصحت له عنه فاهتز بعنف. كنت قد استشففت ذلك من الصفة الذاتية لكل أسئلته وأقواله فقلت له: «أنت يهودي غير اسمه الحقيقي باسم آنغلو ساكسوني» وتأكد لي ظني مما ظهر على وجهه من ارتباك.

وقال: «كيف عرفت ذلك؟» فقلت: «إن لي خبرة بطريقة اليهود في الهجوم علي وقدرة على استشفافها. وقلت له إن ما أعيبه على اليهود نفاق معظمهم في ما يدعونه من مصادقة

للأمريكيين السود وأن اتهامهم لي بمعاداة السامية كلما فتحت فمي لأقول الحقيقة عنهم يحرق أعصابي. قلت له إنني أشهد لهم بأنهم أكثر البيض كلاماً وتمويلاً وزعامة وليبرالية فيما يتعلق بحركة الحقوق المدنية الزنجية، ولكنني أعرف أنهم لا يفعلون ذلك إلا بهدف استراتيجي خاص، لأن التركيز العنصري في أمريكا كلما زاد على السود خف عن اليهود وأن البرهان على نفاق معظم اليهود الذين يدعمون الحقوق المدنية أن أكثر مَنْ كانوا يدعون إلى الفصل العنصري في الشمال يهود.

وهناك حجة أخرى على حقيقة الموقف اليهودي من الزنوج وهي ما يحدث عندما يسكن زنجي في حي أكثر سكانه يهود فيكونون أول من يدشن خروج البيض من ذلك الحي.

وعندما يسكن الزنجي في حي أبيض ولا يهجره سكانه، يكون هؤلاء السكان إرلانديين كاثوليكيين وإيطاليين ولا يكونون يهوداً. والمهزلة أن هؤلاء اليهود أنفسهم يجدون صعوبة كبرى في جعل البيض يقبلونهم. أنا أعرف أنني سأسمع عن كلامي هذا أنني «معاد للسامية» أجل أعرف ذلك ولكنه لن يمنعني من قول الحقيقة.

كانت أمريكا وأنا في تلك السفرة في خضم الانتخابات الرئاسية، وكانت وكالات الأخبار الأمريكية قد لحقت بي في القاهرة وآكرا بمكالمات عبر المحيط سألتني فيها إن كنت

مع جونسون أو غولد ووتر فقلت إنهما فيما يخص الأمريكيين السود سواء. وكنت أشعر أن الاختيار بينهما بالنسبة للأمريكيين السود اختيار بين الذئب والثعلب. ذلك أن الليبرالية والمحافظة في أمريكا تعنيان فيما يخص الزنجي بقاءه حيث هو مع فارق واحد وهو أن الليبرالية تقول:

«دعونا نضحك عليه ونعده بتحسين معاملته ونعطيه مزيداً من الوعود». وكنت أشعر والحالة هذه أن اختيار الزنجي لأحدهما يعني اختياره لمن يريده منهما أن يأكله لأنه في كلتا الحالتين مأكول لا محالة.

ولم أكن أميل إلى غولد ووتر أكثر مما كنت أميل إلى جونسون وإن كنت في حجر الذئب سأقدر الخطورة وكانت زمجرته ستبقيني أكثر احتراساً واستعداداً للقتال، أما الثعلب فإنه بمكره قادر على أن يسلمني إلى الإغفاء ويعبث بي وسأثبت لك ما أقوله. من كان بحسب ظنك أول من اتصل به جونسون عندما أصبح رئيساً بفعل عملية الاغتيال التي كانت دلاس مسرحاً لها؟ اتصل بصديقه الحميم «ديكي» أو رتشارد راسل المعروف في جورجيا بتزعمه لمعارضة حركة الحقوق المدنية.

فعل ذلك في الوقت الذي كان يصرح فيه في كل الأبواق بأن الحقوق المدنية مسألة أخلاقية فبدا كعميد الشرطة الذي

يعلن عن معارضته لعملية سطو على بنك وجيسي جايمس أعز أصدقائه.

على أنني كنت أحترم في غولد ووتر أنه رجل لا يحاول إخفاء معتقداته وهو ما لا نجده في أيامنا هذه في البيض إلا نادراً، وأنه ليس من النوع الذي يهمس للعنصريين ويبتسم للاندماجيين. وكنت اعتقد أنه لم يكن ليغامر بالإفصاح عن موقفه العنصري في ذلك الوقت لو لم يكن مقتنعاً به كل الاقتناع.

كان قد قال للسود بكل صراحة إنه ليس معهم وهو شيء في صالحهم لأنهم يتقدمون عندما يقتنعون بأن الحل في قيامهم ضد نظام متعنت. أما الليبراليون فقد حولوا السود إلى متسولين، ولذلك ثار زنوج الجنوب وقاتلوا من أجل حريتهم قبل زنوج الشمال لأنهم وجدوا أنفسهم أمام رجل أبيض مزمجر.

وما أقوله لا يعني أنني أفضل غولد ووتر على جونسون أو العكس. لقد كنت وقتها خارج الولايات المتحدة، وإلا لما تورطت في التصويت على أي منهما ولكنت نصحت السود بالامتناع عن التصويت. وقد تبين أن أصوات السود هي التي ساعدت جونسون على الفوز بالرئاسة كما كان يتوقع.

ولو فاز غولد ووتر لعرف السود أنهم سوف يكون عليهم أن يتعاملوا مع ذئب لا مع ثعلب قادر على ابتلاعهم والشروع في

هضمهم وهم لا يشعرون.

كنت كلما سنحت لي الفرصة، أكلم شخصيات هامة في هارليم وألقي خطباً وأقول فيها: «لقد علمني الإسلام أن إيجاد الإنسانية والمجتمع الإنساني الكامل يحتاج إلى عناصر أو مميزات دينية وسياسية واقتصادية وسيكولوجية وعرقية.

ولقد أصبح من بين أصدقائي بعدما زرت مكة المسيحي واليهودي والبوذي والهندوسي وتابع مذهب اللاإرادية بل وحتى الملحد. أصبح منهم الرأسمالي والاشتراكي والشيوعي والمعتدل والمحافظ والمتطرف بل وحتى العم تومي. أصبح من أصدقائي السود والسمر والحمر والصفر والبيض».

وقلت للجماهير في شوارع هارليم إن عبادة الإله الواحد وحدها ستقرب الإنسان من السلام الذي يتكلم عليه الجميع ولا يفعل أحد شيئاً لتحقيقه. قلت لهم إن علينا أن ننظر إلى صراع السود ضد العنصرية البيضاء في أمريكا على أنه مشكل إنساني وننسى السياسات المنافقة والدعاية ونتذكر أن حل مشكل أمريكا الإنساني هذا مسؤولية تقع على عاتق الطرفين معاً. قلت لهم إن على البيض ذوي النيات الحسنة أن يحاربوا العنصرية عند غيرهم من البيض بصفة فعالة ومباشرة، وأن على السود أن ينموا في داخلهم وعياً أكبر، أن عليهم من

الواجبات مثل ما لهم من الحقوق.

إن الحركات الحقيقية ذات الدلالة والتي تدفع إليها النوايا الحسنة والمسؤولية الأخلاقية تستطيع أن تضع يدها على أسباب الانفجار العنصري الذي تعرفه أمريكا اليوم، وتستطيع أن تحاصره، واتهامي أو اتهام غيري ممن يسمون بالمتطرفين والديماغوجيين السود، بتحريك العنصرية في أمريكا لن يحل المشكل. وقد تمنيت غير ما مرة أن يقول التاريخ يوماً إن صوتي الذي ضايق غرور الرجل الأبيض وغطرسته وإعجابه بنفسه قد رد عن أمريكا كارثة خطيرة كانت ستقودها إلى الهلاك، وأنا التقى مع الدكتور كينغ في وحدة الهدف رغم اختلاف الوسائل، ألا وهو تعرية مأساة ما لاقاه سود عزل على يد البيض. وفي المناخ العنصري الذي تعيش فيه البلاد اليوم يتساءل البعض عن أي منا سيصفى أولاً الدكتور كينغ بسياسته السلمية أو أنا المنعوت بالعنف.

إنني أعتبر كل ما أقوم به اليوم مستعجلاً لأن كل واحد منا قد حدد له الوقت الذي عليه أن ينجز فيه ما قدر له أن ينجزه. وأنا لم يطل بي العهد أبداً في أي عمل قمت به بل كانت حياتي كما رأيت سلسلة من التحولات الجذرية. إنني أعيش الواقع وانتظر الموت في أي وقت ولاسيما منذ رجعت

من سفري الأخير إلى الخارج الذي وقفت فيه على طبيعة الأحداث وتوصلت إلى معلومات من مصادر موثوق بها. على أن الموت لا يخيفني كما قد يخيف بعض الناس وقد كنت أعلم أنني لن أعيش حتى أصبح عجوزاً منذ ما قبل أن أعتنق الإسلام. وعندما كنت مهرباً في غابة الحي الزنجي ومجرماً في السجن، كنت أعرف أنني سأموت موتاً عنيفاً، خصوصاً وأن ذلك قد جرت العادة به في عائلتنا إذ قتل أبي ومعظم أخوته. وإذا اعتبرنا أن أبي قتل بسبب معتقداته واعتبرنا معتقداتي وأضفنا إليها طبعي والتزامي التام بما اعتقده، أصبح موتي في سن متقدمة وعلى فراش المرض ضرباً من الخيال.

لقد خصصت لهذا الكتاب أكثر ما عندي من وقت، لأنني على يقين أن قصة حياتي الكاملة والمحكية بصدق قد تكون إذا ما قرئت بموضوعية شهادة ذات أهمية اجتماعية ما. واعتقد أن القارئ الموضوعي قد يرى كيف أنه لم يكن أمامي كشاب أسود في تلك البيئة الأمريكية، إلا أن أنتهي إلى السجن، وهو ما يحدث لآلاف الشباب الأسود.

القارئ الموضوعي قد يرى كيف أنني عندما سمعت عبارة «الرجل الأبيض شيطان» لأول مرة ومر شريط حياتي أمام عيني، لم يكن أمامي إلا أن استجيب لها وأكرس الاثنتي عشرة سنة

التالية لنشرها بين السود. وأرجو أن يقوم القارئ الموضوعي وهو يتتبع قصة حياتي وهي قصة واحد ممن صنعتهم الأحياء الزنجية، بتغيير مفهومه ورأيه في الأحياء الزنجية التي تشكل حياة كل الزنوج في أمريكا تقريباً.

وفي كل عام يزداد في هذه الأحياء عدد المراهقين الذين يتخذون من المجرمين كما فعلت مثلهم العليا ويتعرضون لتأثيرات سيئة. أنا لا أقول إن كل واحد منهم سيصبح عالة على المجتمع كما كان الشأن بالنسبة لي. إن نسبة قليلة منهم تفعل ذلك ولكنها نسبة متواترة تضاف سنوياً إلى مجموع الشباب المجرم والمكلف والخطير وتبقيه في تزايد مستمر.

لقد نشرت مصلحة البوليس الفدرالي مؤخراً تقريراً عما تعرفه الجريمة من ارتفاع سنوي مقلق منذ نهاية الحرب العالمية الثانية يقدر بنسبة عشرة إلى أحد عشر في المائة وإن كان ذلك التقرير لا يشير إلى أن أكثر تلك النسبة من الجرائم يقع في الأحياء الزنجية التي سمح المجتمع الأمريكي الأبيض بوجودها. وقد كان شباب الأحياء الزنجية الفقير يتقدم أحداث صيف 1964 «الطويل والحار» التي شهدتها كبريات المدن الأمريكية.

ولي اليقين أن تلك الأحداث ستتكرر وتكون أكبر وأخطر

على الرغم من مشروع قانون الحقوق المدنية الذي يريد به الرجل الأبيض إراحة ضميره، لأن وباء العنصرية في أمريكا أُهمل أكثر مما ينبغي.

وظني أنه لا يوجد رجل أسود في أمريكا قاسي ما قاسيته أو تردى إلى درجة الانحطاط الاجتماعي الذي ترديت إليه أو مني بالجهل الذي منيت به ولكن لا انفراج إلا بعد شدة ولا معنى للحرية إلا بعد الأسر والعبودية.

لقد استعملت في نضالي أفضل ما هداني الله إليه وقدرني عليه لتحقيق الحرية لإخواني وأخواتي السود هنا في أمريكا، وعرفت النجاح كما عرفت الفشل.

ولعل من حسن حظي أنني لم أتخرج في الجامعات كما كنت أتمني وإلا لكنت الآن محامياً (ناجحاً ولا شك) لأنني كنت طول عمري مغرماً بالمعارك الفكرية والتحدي، ولو كان عندي الوقت الآن لرجعت من دون خجل إلى إحدى المدارس الرسمية في نيويورك ولواصلت تعليمي من حيث تركته أي السنة الرابعة من الثانوي، ولكنني إلى الآن لا أجد الوقت لبدء تكويني في كل المواضيع التي أحبها، فأنا أحب اللغات مثلاً وكان سيثلج صدري أن أصبح لسانياً مقتدراً.

وليس هناك ما هو أدعى للإحباط في رأيي من أن يجد

المرء نفسه في مكان يتكلم الناس فيه لغة لا يفهمها لاسيما إذا كان هؤلاء الناس منه وإليه. ولقد سمعت في إفريقيا لغات أم مثل الحوسية والسواحلية فكنت أقف كالطفل الصغير في انتظار أن يأتي من يترجم لي وأشعر بجهلي بحدة.

لو كان عندي الوقت لتعلمت العاميات الإفريقية واللغة الصينية التي أعتقد أنها ستصبح أقوى لغة سياسية في المستقبل. وقد بدأت فعلاً في تعلم العربية التي أعتقد أنها ستصبح من جهتها أقوى لغة روحانية في المستقبل.

لو كان عندي الوقت لدرست لمجرد أن الدراسة ستمنحني الشعور بالسعادة ولصنفت المعارف وتصديت لها لأنني أهتم بكل شيء، وهو ما جعلني أحب بعض منتجي البرامج الإذاعية والتلفزيونية التي شاركت فيها واحترم تفكيرهم، لأنهم كانوا رغم اختلافهم الدائم تقريباً معي في شأن المسألة العنصرية، كانوا متفتحين وموضوعيين أمام الحقائق التي كنت أطرحها وأذكر من بينهم إبرف كوبسينيت في شيكاغو وباري فاربر وباري غراي ومايك والاس في نيويورك الذين أثبتوا لي احترامهم لأفكاري وهم لا يدرون. كانوا يدعونني للتعبير عن رأيي في مواضيع لها علاقة بالعنصرية وكنا في نهاية البرنامج نبقى نتكلم ساعة أو أكثر في كل شيء، في مواضيع الساعة وغيرها.

أقول ذلك لأن معظم البيض حتى عندما يعترفون للزنجي بشيء من الذكاء يعتقدون أنه لا يستطيع أن يتكلم إلا في العنصرية، وأنه غير قادر على أن يساهم بشيء في المجالات الفكرية الأخرى. البيض مثلاً لا يسألون السود عن رأيهم في مشكل الصحة في العالم أو في التسابق على إنزال أول إنسان على سطح القمر.

إنني أعتبر كل صباح جديد يوماً مكتسباً في عمري وأجد السود في خطبي واجتماعات منظمتي وباقي المناسبات التي تجمعني بالناس، يراقبون تصرفاتي التي تدل ولا شك على أنني أتوقع أن يقوم أحد بقتلي. وكنت قد أعلنت أكثر من مرة أنني أعرف أن الأوامر بقتلي قد صدرت، وإذا كان هناك من يشك في ما أقوله فهو لا يعرف أمه الإسلام. وبالمناسبة أريد أن أقول للذين يطاردون رجلا ليقتلوه إن الدائرة ستدور ويأتي يوم يجدون فيه من يطاردهم ليقتلهم.

وأنا أعرف أيضاً أنني قد أقتل بيد عنصري أبيض أو زنجي مسخر من طرف البيض أو زنجي مغسول الدماغ يتصرف بمشيئته وبحسب أن موتى يخدم البيض نظراً لما أقوله عنهم. ولقد أصبحت أعيش وكأنني ميت ولذلك سأطلب منك شيئاً. عندما أموت (وأقولها بيقين لأنني أعرف مما وصل إلى علمي

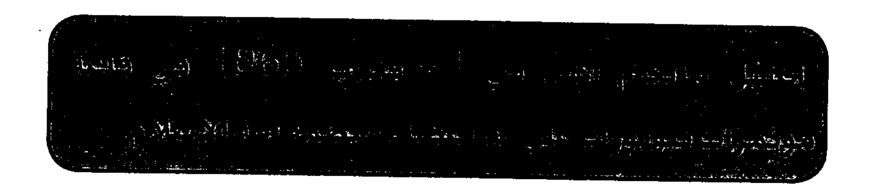
أنني لن أعيش لأقرأ هذا الكتاب) لاحظ أن الرجل الأبيض سيتهمني في صحافته بالتحريض على «الكراهية» وأنه سيستعملني ميتاً كما استعملني حياً ويجعل مني رمزاً سهلاً للعنصرية يساعده على التملص من الحقيقة وهي أنني لم أزد على أن حملت مرآة عكست وكشفت سجل الجرائم المخفية التي ارتكبها جنسه ضد جنسي. ستري، سيكون أقل ما يقولونه عني أنني أسود لا مسؤول.

وقد كنت أشعر دائماً أن الزعيم الأسود المسؤول في نظرهم هو الذي لا يحقق أية نتيجة. عندما يرميك الرجل الأبيض بـ«اللامسؤولية» يكون معنى ذلك أنك رجل أسود فعال. عرفت ذلك منذ الطفولة وعرفته أكثر منذ أصبحت «زعيماً» أسود في المجتمع الأمريكي العنصري، وكنت أشعر بالاطمئنان كلما وجدت الرجل الأبيض يزيد من مقاومته أو مهاجمته لي لأن ذلك كان يثبت لي أنني أسير على الطريق الصحيح المؤدي إلى مصالح الأمريكيين السود.

وقد أكدت لي المعارضة التي لقيتها من العنصري الأمريكي الأبيض أنني قدمت للسود شيئاً قيماً.

نعم كنت أحب دوري الذي قالوا عنه إنه «ديماغوجي» وكنت أعرف أن المجتمعات تقتل أحياناً من يعملون على إحلال التغيير

فيها وإذا مت وكنت قد سلطت بعض الضوء على حقيقة هامة من شأنها أن تستأصل السرطان العنصري الخبيث من جسد أمريكا، فالفضل كله في ذلك يرجع إلى الله، وأما الأخطاء فهي لي.



فهرس المحتويات